الفصل الثامن

دور الصهيونية والاستعمار في خلق إسرائيل

1 ـ الصهيونية حركة سياسية استعمارية:

الصهيونية مشتقة من لفظة " صهيون " وصهيون اسم رابية في أورشليم كان قد أقام عليها اليبوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب حصنا قبل ظهور بنى إسرائيل (قوم موسى) بحوالى ألفى عام، ولذا تكون اللفظة كنعانية (عربية) وليست عبرية (يهودية)، شأنها شأن أسماء مدى وقرى فلسطين القديمة التي كانت وما زالت تحمل أسماءها الكنعانية الأصلية حتى يومنا هذا. وقد أطلقت تسمية الصهيونية على منظمة إرهابية أسسها يهود روسيا بعد منتصف القرن الماضى، فسمى أعضاؤها " عشاق صهيون " و " أحباء صهيون ". وانتمى إلى هذه المنظمة معظم يهود روسيا البارزين، منهم والد وايزمن وابن غوريون وسوكولوف. وقامت هذه المنظمة بحركات سرية ضد القيصرية، ثم أخذت تعنى بفلسطين وصارت تسعى لاستعمارها كوطن قومى لليهود. ويلاحظ من ذلك أن أكثر الزعماء المؤسسين للمنظمة الصهيونية هم من يهود أوربا الشرقية (1).

وما لبثت هذه المؤسسة أن أصبحت مؤسسة سياسية استعمارية دولية ذات جهاز تنظيمى اتخذ مؤسسوها من اضهاد اليهود ذريعة لتنظيم حركة يهودية سياسية تستهدف أول ما تستهدف تأسيس وطن قومى لليهود في فلسطين بحجة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين. وقد وجدت الصهيونية بعد تحرر اليهود في معظم أرجاء أوربا ومنحهم الحقوق المدنية والحرية الكاملة للعيش في المجتمعات الأوربية ظروفا مواتية لنشاطاتها، فبدأت نشاطها المنظم بدعوى معاداة الشعوب للسامية وبنشر أسطورة مفاداها أن فكرة إنشاء الوطن اليهودى في فلسطين قديمة، فمنذ هدم هيكل سليمان قبل ما يقرب من ألفى عام واليهود يتطلعون إلى تحقيق حلم العودة إلى فلسطين أرض الميعاد.

وقد انبثقت وتكونت نتيجة المساعى المبذولة في تحقيق هذا المشروع المبنى على الباطل والقائم على التضليل والخداع المنظمة الصهيونية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر، ففى آب من عام 1897م عقد أول مؤتمر دولى للصهاينة في مدية بازل بسويسرا حضره نحو ثلاثمائة شخص يمثلون خمسين جمعية يهودية تمخض عنه تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية وقد انتخب المؤتمر تيودر هرزل

(1) انظر: " بروتوكولات حكماء صهيون "، للأستاذ عجاج نويهض، م1، ص 6.

رئيسا له [1]، وبعد ذلك وقت قليل انبثقت عن المنظمة سنة 1902 الجمعية الصهيونية الدولية المساهمة التي أصبح لها فروع محلية تمثل أكبر الاتحادات المالية المرتبطة اقتصاديا بأوثق الصلات مع احتكارات الدولة الاستعمارية، وقد حدد مؤتمر بازل أهداف المنظمة الصهيونية في العبارات التالية:

" إن غاية الصهيونية هى خلق وطن للشعب اليهودى في فلسطين يضمنه القانون العام ". كما رأى المؤتمر في الوسائل التالية الطريق إلى تحقيق هذه الغاية:

1- العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.

2- تنظيم اليهودية العالمية، وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.

3- تقوية الشعور والوعى القومى اليهودى وتغذيتهما.

4- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غايات الصهيونية.

وقرر المؤتمر أيضا اعتبار اللغة العبرية لغة رسمية للتخاطب بين اليهود في جميع ربوع العالم، وتنفيذا لهذا القرار توصل الحاخام " بن يهوذا " في سنة 1911 إلى وضع لغة عبرية حديثة يمكن أن يستخدمها كل يهود العالم الذين يريدون الذهاب إلى فلسطين [2]. وهذه اللغة تعود إلى أصول جرمانية [3].

---

(1) لقد سبق أن أصدرت جماعة مؤلفة من 500 شاب من يهود خاركوف في روسيا وهم من جملة أعضاء منظمة " عشاق صهيون " بيانا في استامبول سنة 1882 على أثر المذابح الموجهة ضد اليهود في سنة 1881 في روسيا (اليوكروم) يعرف باسم " بيان بيلو " تدعو فيه إلى تنظيم حركة العودة إلى فلسطين وتطالب (على حد تعبيرها) بالرجوع إلى " بلدنا فلسطين التي منحها الرب لنا وهى وطننا كما أثبتته الوثائق التاريخية "، وكلمة بيلو مأخوذة من التوراة وتؤلف الأحرف الأولى مما جاء في العدد الخامس من الإصحاح الثانى من سفر أشعيا " يا بيت يعقوب هلم فنسلك في نور الرب "، راجع نص البيان في كتاب " Reader Arab - Israel The " الطبعة الثانية، ص 3 - 4.

(2) " حوليات فلسطينية "، ص 14.

(3) " العربى "، العدد 109، ص 53.

ومن الواضح أن الحركة الصهيونية غدت تمثل مخططا استعماريا صرفا ذا صبغة سياسية قائما على ادعاء باطل وعلى الخداع والتضليل، وقد أخذ زعماؤها يتاجرون بها على مسرح الدول الاستعمارية الكبرى على حساب أهلها وسكانها العرب.

2 ـ بروتوكولات حكماء صهيون:

لقد كشف النقاب عن وثائق مهمة يعتقد أنها كانت مدار بحث ونقاش في المؤتمر الأول المنعقد في بازل سنة 1897م، فسميت هذه الوثائق " بروتوكولات حكماء صهيون ". ويفضل البعض تسميتها بمقررات سنة 1897 باعتبارها أعدت لتبحث في المؤتمر المنعقد في بازل في تلك السنة وتبرم بعد تلاوتها. وقد كتبت هذه الوثائق على شكل تقرير بدايته مفقودة وهو ينطوى على مخطط يومى لتمكين اليهود من السيطرة على العالم أجمع لمصلحة اليهود وحدهم وتأسيس حكومة ملكية استبدادية يهودية مقرها أورشليم أولا ثم تستقر إلى الأبد في روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية قديما.

والثابت أن مواد هذا المخطط مستقاة من التلمود التي تجسمت فيه الروح المتعصبة والمعادية لكل من كان من غير اليهود وعقيدة " الشعب المختار " التي تمسك بها اليهود طيلة أدوارهم التاريخية [1]. وعلى الرغم من إحاطة هذه الوثائق بأشد أنواع الكتمان والتحفظ فقد وقعت في أيدى من قام بترجمتها وطبعها. والشخص الذي قام بهذه المهمة الخطيرة هو الكاهن سرجى نيلوس، وهو من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، فترجم الكتاب إلى الروسية ونشره بطبعة أولى محدودة سنة 1902م، وعلى أثر ذلك عمت المذابح ضد اليهود في روسيا وقد قتل منهم في إحداها نحو عشرة آلاف، ولكن نيلوس أعاد مع ذلك نشر الكتاب مع مقدمة وتعقيب بقلمه سنة 1905 وقد سماها " بروتوكولات حكماء صهيون " [2].

(1) حول صلة البروتوكولات بأحكام التلمود راجع القس بولس حنا مسعد، " همجية التعاليم الصهيونية "، 1938م، راجع أيضا ما تقدم عن التلمود في الفصل الثالث.

(2) أن صيغة اللغة التي كانت قد كتبت بها البروتوكولات في الأصل غير معلومة، فيستخلص البعض أنها بالعبرية أو الفرنسية وقام الكاهن نيلوس بنقلها إلى الروسية، بينما يرجح البعض أنها كانت باللغة الروسية وقام نيلوس بطبعها.

ثم طبع الكتاب مرة أخرى في سنة 1911، ومرة أخرى في سنة 1917م [1].

وفى نفس السنة الأخيرة ذاتها قام المستر مارسدون، مراسل جريدة المورننغ بوست البريطانية بترجمة الكتاب إلى الإنجليزية عن النسخة الروسية لنيلوس المطبوعة سنة 1905م، والتى كانت إحدى نسخها قد وصلت إلى المتحف البريطانية سنة 1906م، ثم أعيد طبع هذه الترجمة الإنجليزية خمس مرات في غضون ثلاث سنوات بين سنة 1919 وسنة 1921م، وفى سنة 1919 ترجم الكتاب إلى الألمانية ونشر في برلين، ثم توقف طبعه بعد أن جمعت أكثر نسخه [2].

وقد اختلفت الروايات حول كيفية ظهور البروتوكولات للعالم وصحة وجودها أو عدمه، فادعى البعض أنها مختلفة وليس لها أساس من الصحة بينما أكدها البعض الآخر، فقد ذكر نيلوس في مقدمة كتابه أن صديقا له (يعتقد أنه أليكس نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية في عهد القيصرية دفعها إليه قبل أربع سنوات (1901) وهى بالتأكيد القطعى صورة حقيقية منقولة من وثائق أصلية سرقتها سيدة فرنسية من أحد زعماء الماسونية الحرة وقد تمت السرقة في نهاية اجتماع سرى بهذا الرئيس في فرنسا حيث وكر المؤتمر الماسونى اليهودى. وتشير رواية أخرى على أن حكومة القيصر التي كانت تتعقب حركات الصهيونيين أنفذت جواسيسها الروس المجريين إلى بازل متنكرين وبينما المؤتمر منعقد في جلسة سرية دهم البوليس السرى القيصرى المؤتمر فكانت البروتوكولات من جملة ما استولت عليه أيدى المداهمين[3].

---

(1) يعتقد الباحثون الغربيون أن واضع البروتوكولات هو أحد كبراء اليهود المشهور في عالم الكتابة اليهودية باسم " أحدها عام " أى أحد أفراد الشعب، وجاء إلى فلسطين بعد الحرب= =العالمية الأولى وأقام ومات فيها سنة 1927م، بعد عمل استمر نحو 60 عاما في سبيل الصهيونية.

(2) محمد خليفة التونسى، " الخطر اليهودى - بروتوكولات حكماء صهيون "، الطبعة الرابعة، بيروت.

(3) يجد القارئ في كتاب " بروتوكولات حكماء صهيون " للأستاذ البحاثة عجاج نويهض بحثا مستفيضا عن بروتوكولات حكماء صهيون، والكتاب يقع في مجلدين وأربعة أجزاء طبع في بيروت على الأرجح ولم يذكر لا مكان الطبع ولا تاريخه، والكتاب هو من أحسن ما كتب في هذا الموضوع وفى اليهودية العالمية.

3 ـ نابليون يستغل فكرة استعمار فلسطين لمصلحته:

وكان أول من اجتذبته فكرة استعمار فلسطين على يد الصهيونيين نابليون بونابرت الذي كان قد خطط لتحقيق حلمه بإنشاء إمبراطورية في الشرق، فبعد شروعه في غزو فلسطين في سنة 1799م وجه نداء إلى جميع اليهود في العالم يستحثهم فيه على الانضمام تحت لوائه والانضواء تحت رايته لإعادة بناء " مجد إسرائيل الضائع في القدس " على حد تعبيره ويصفهم بأنهم الورثة الشرعيون لفلسطين [1].

والظاهر أن نابليون أصدر هذا النداء لكسب جانب اليهود فيستغل نفوذهم في أقطار الدولة العثمانية ومعاونتهم له في تحقيق غاياته ومراميه. ولكن محاولة نابليون هذه انتهت بالإخفاق والفشل التام على أثر اندحار جيوشه أمام حصن عكا الحصين فاضطر بعد ذلك إلى مغادرة القطر المصرى بسرعة والعودة إلى فرنسا رغم الانتصار الذي أحرزه في " أبو قير ".

وفي أثناء حصار نابليون لعكا أصدر نابليون بيانًا موجهًا إلى يهود العالم هذا نصه:

" إن العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت رائدي العدل وكلفتني بالظفر ، وجعلت من القدس مقري العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها بلد داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين!

إن الأمة العظيمة التي تتجر بالرجال كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم للشعوب ، تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم حسب، وليس بغية

---

(1) يرى مستر جفريز مؤلف كتاب " فلسطين - الحقيقة " أن فكرة استعمار فلسطين على يد الصهاينة ترجع إلى ما قبل عهد نابليون بحوالى ستة قرون، وذلك حين جاء ثلاثمائة حبر من أحبار اليهود إلى صلاح الدين الأيوبى لاستقصاء الإمكانيات لهجرة اليهود إلى فلسطين فيقول ما هذا نصه: " لما استعاد صلاح الدين مملكة الإسلام وجد اليهود عطفا منه وكانوا عندئذ قلة (في فلسطين) وهناك حادث تاريخى غريب ذو بال قل من عرفه، وهو أن صلاح الدين استقبل في سنة 1211م ثلاثمائة حبر من أحبار اليهود جاءوا من انجلترا وفرنسا، وقد جاء هؤلاء سعيا وراء الاستقصاء عن إمكانية هجرة اليهود (إلى فلسطين) غير أن مهمة هؤلاء الأحبار لم تسفر عن أية نتيجة. انظر:

Jeffries (P.). "Palestine - The reality", P. 31.

استرجاع ما فقد منكم بل لأجل ضمان وموآزرة هذه الأمة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين ".

" انهضوا وبرهنوا على أن القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئًا بسبيل تثبيط همة أبناء هؤلاء الأبطال التي كانت محالفة إخوانهم تشرف اسبارطا وروما ".

ويعتقد أن نابليون قد تأثر بما كتبه بعض الكتاب الفرنسيين بشأن اليهود، ومن هذه الكتابات المذكرة التي قدمها البرنس " دى لينيه " إلى إمبراطور النمسا جوزيف الثانى عن اليهود سنة 1797م حيث أشار فيها إلى وجوب إصلاح شأن اليهود وإعادتهم إلى مملكة يهوذا وأضاف قائلا: " وهم لا يحجمون عن أن يجعلوها بلادا عامرة مزدهرة كما كانت في عهدها الماضى. ومتى عادت بلاد اليهود إلى يدهم، فإنهم لا يتوانون لحظة في إدخال الزراعة والصناعة والفنون والتجارة إليها على الأساليب الغربية. ثم أنهم يجددون هيكل سليمان ويستخدمون مياه الأمطار والمجارى لرى حقولهم ومزارعهم، وينشئون القنوات والترع للملاحة [1]. هذا نموذج من الآراء التي كانت تروجها جماعة من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في أوربا وقد كان لها صدى في تخطيط نابليون لإمبراطوريته في الشرق.

4 ـ بريطانيا تحتضن الصهيونية وتتبنى مشروعها الاستعمارى:

وبعد فشل نابليون في تحقيق مشاريعه الاستعمارية في الشرق أخذت كل واحدة من الدول الاستعمارية الكبرى تحاول تحقيق نفس الأهداف التي كان نابليون يسعى لتحقيقها، أى استغلال التمهيدات الصهيونية لاستعمار فلسطين على يد اليهود لصالحها. وكانت انجلترا في الطليعة وهى رائدة الدول الاستعمارية وأقدمها خبرة وأوسعها معرفة واطلاعا بشئون الاستعمار، فوجدت في المبشرين بالفكرة الصهيونية من رعاياها من اليهود وغيرهم أداة طيعة تستغلها في تحقيق المشروع لصالحها قبل أن تحتضنه دولة أخرى لصالحها.

ومن هؤلاء المبشرين الثرى اليهودى البريطانى الجنسية السير موسى مونتوفيورى الذي كان في مقدمة المتحمسين للصهيونة ومشروعها الاستعمارى، فزار فلسطين عدة مرات وأقام في مصر مرارا عديدة وكان مونتوفيورى هذا

(1) إيلى ليفى أبو عسل، " يقظة العالم اليهودى "، ص 124.

مقربا من البلاط البريطانى يحظى برعاية خاصة من الملكة فكتوريا وريثة التاج البريطانى، وقد كان آنئذ اللورد بالمرستون متقلدا منصب رئيس الوزراء وكان بدوره من الذين يؤيدون مشروع تمكين اليهود من استعمار فلسطين لمصلحة بريطانيا. ففى سنة 1738م قابل مونتوفيورى محمد على باشا الكبير والى مصر بصفته حاكما عاما على سورية التي كانت ولاية فلسطين تابعة لها وعرض عليه " أن يؤجر لليهود مائة أو مائتى قرية لمدى خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجيا على أن تكون هذه القرى حرة مجردة من كل مانع ومحذور، أى طليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدة الإيجار، وللزارعين الحق في بيع حاصلاتهم في أى بلد من بلدان العالم، وليس من حرج عليهم في ذلك ". وقد أسفرت هذه المقابلة عن " تعهد محمد على باشا بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سورية. وأبدى الوالى رغبته في أن تمنح لهم الأراضى بمجرد طلبهم وقال أن اليهود بإمكانهم والحالة هذه أن ينتخبوا حكاما يقع اختيارهم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها. وأكد أنه لن يدخر وسعا في سبيل معاونتهم وشد أزرهم في إنجاز هذا المشروع. وقد أصدر أمرا بتأييد هذه التأكيدات والوعود كتابيا بمقتضى الفرمانات الصادرة عن الحكومة المصرية في هذا الخصوص. وكانت تهدف بالطبع مساعى مونتوفيورى هذه لحل المسألة اليهودية بوساطة استعمار فلسطين (على حد تعبيره) بمآزرة الحكومة البريطانية وتأييدها [1]. وفى هذا الوقت بالذات وجه بالمرستون وزير خارجية بريطانيا رسالة إلى نائب القنصل الإنجليزى في القدس يأمره فيها: " كن حاميا لليهود بصورة عامة ".

وفى سنة 1840 كتب بالمرستون أيضا إلى سفير جلالة الملك في استانبول رسالة يقول فيها: " من الواضح أنه سيكون للسلطان مصلحة كبيرة في أن يشجع اليهود على أن يعودوا إلى فلسطين، وأن يستقروا فيها.. أحمل هذه الفكرة سرا إلى الحاكم التركى، وأطلب منه في صراحة تامة أن يشجع يهود أوربا على العودة إلى فلسطين " [2].

(1) " يقظة العالم اليهودى "، ص 145 - 152.
(2) " حوليات فلسطينية "، ص 10 - 11.

ثم نشبت الحرب بين محمد على باشا وبين الحكومة العثمانية فأسفرت عن انتصار جيشه وزحفه على الآستانة بعد أسر عدد من القواد الأتراك. وقد أصبحت أبواب الآستانة مفتوحة أمام جيش محمد على لولا تدخل الجيش الروسى لسد تلك الأبواب بوجهه، وبعد تدخل الدول الكبرى اضطر محمد على باشا إلى سحب جيشه الظافر من الأناضول وترك الأقطار السورية ومن ضمنها فلسطين إلى الحكومة التركية لإدارتها بوساطة حكام من الباب العالى. وكانت شروط الصلح التي فرضت على محمد على باشا في 5 أيلول 1840 تنازله عن سيادته على سورية وفلسطين على شرط أن يكون الحكم في مصر حقا متوارثا لذريته وأعقابه، فكان ذلك ضربة قاصمة لمشروع مونتوفيورى ومؤيديه [1]، إلا أن هذه الأحداث لم تثن دعاة المشروع عن مواصلة دعايتهم له والسعى لتحقيقه.

ففى 25 أيلول 1840 كتب اللورد شافتبورى السياسى الإنجليزى المعروف رسالة إلى وزير خارجية بريطانيا بالمرستون يقول فيها: " إن سورية ومن ضمنها فلسطين ينبغى أن تحول إلى دومنيون إنجليزى " وأكد أن الحاجة تستدعى من أجل ذلك إلى رأس المال واليد العاملة.. وإذا ما بحثنا مسألة عودة اليهود لبناء فلسطين واستيطانها فإننا سنكتشف بأن تلك أرخص الطرق وأسلمها لتأمين كل ما هو ضرورى لهذه المنطقة الضئيلة السكان [2].

وكتب شافتبورى بعد ذلك مقالا للصحف قال فيه: " ستكون سورية (ومن ضمنها فلسطين) بعد إعادة إنشائها بلدا تجاريا بصورة خاصة، ومن هم أكبر التجار في العالم؟ وهل يوجد حقا مكان أكثر ملاءمة، ومنطقة مباركة، يمكن أن

---

(1) يجد القارئ في كتاب الأستاذ عجاج نويهض " بروتوكولات حكماء صهيون " (م2، ص 248 - 260) بحثا مستفيضا يتناول تاريخ حياة مونتيوفرى ودوره في محاولات= =الصهيونية في تحقيق أهدافها الاستعمارية الخاصة باستيطان اليهود في أرض فلسطين،
ومما ذكره الأستاذ نويهض في هذا الصدد أن مشروع مونتوفيورى كان يرمى إلى استئجار 100 - 200 قرية في شمال فلسطين، صفد وطبرية وما إليهما، لمدة 90 سنة على أن تدفع الأعشار السنوية سلفا وبزيادة 10 - 20% على معدل تخمين الأعشار وقتئذ وعلى أن تكون الأراضى خلال مدة الإيجار لا يد لأحد عليها، واليهود أحرارا في التصرف في الإنتاج داخل فلسطين وخارجها، إلا أن انسحاب جيش محمد على باشا من سورية وفلسطين قضى على هذه الصفقة.

(2) N. Socolow, "History of Zionism", Vol.II, P. 230.

يبدى فيها اليهودى مؤهلاته؟ إنها ستكون ضربة موجهة ضد انجلترا إذا ما امتلك أى من منافسيها سورية ".

وفى 25 كانون الثانى 1853 أعلن في البرلمان الإنجليزى العقيد جورج غاولر حاكم جنوب استراليا السابق " أن العناية الإلهية هى التي وضعت سورية ومصر على طريق انجلترا إلى أكثر مناطق تجارتها الخارجية الكولونيالية أهمية. وينبغى أن تجدد يد بريطانيا سورية بوساطة الشعب الوحيد الملائم للقيام بهذه الرسالة والذى يمكن أن تستخدم طاقته بصورة دائمة وفعالة، إنهم الأبناء الحقيقيون لهذه الأرض أبناء إسرائيل " (1).

وقال جيمس نيل في كتابه " النزوح إلى فلسطين أو جمع شمل إسرائيل المشردة " سنة 1877م: " إن احتمال إمكانية الإنجليز استيطان أرض فلسطين بنفس النجاح الذي استوطنوا به أمريكا الشمالية بعيد جدا وذلك بسبب حرارة الجو والصعوبات التي يقيمها العرب والافتقار إلى حماية فعالة وكثير غير ذلك. لهذا فهو يقترح أن يستخدم اليهود لتحقيق هذا الهدف.

ومن أغرب الأحداث الدالة على التزاحم بين الدول على كسب النفوذ السياسى في فلسطين مشاركة إنجلترا وألمانيا في تأسيس إرسالية تبشيرية مشتركة في القدس سنة 1851م، فاتفقتا على أن يشرف عليها أسقف مرسوم على المذهب (الإنكليكانى) الإنجليزى، ولكن تعيينه يجرى بالتناوب بين ملك انجلترا وملك بروسية (ألمانية) ومما حمل الدولتين على تأسيس أسقفية مشتركة في القدس إن السلطات الإنجليزية والبروسية في الشرق والحماية الدينية التي تتمتع بها فرنسا على النصارى الكاثوليك يحسن أن توازنا بحماية ألمانية إنجليزية على البروتستانت. وقد كان أول أسقف على أسقفية القدس هذه ميخائيل شلمون إسكندر وهو حاخام يهودى متنصر. ومن الواضح أن الدوافع لتأسيس هذه الأسقفية المشتركة وإن كانت دينية في الظاهر ولكنها كانت سياسة من الدرجة الأولى (2).

وهكذا بات الجو مهيئا لظهور الصهيونية كحركة سياسية منظمة وكمؤسسة رأسمالية فأنشئت في انجلترا في السبعينات من القرن التاسع عشر " الشركة الكولونيالية السورية - الفلسطينية " بغرض استعمار سورية وفلسطين والبلدان القريبة.

---

(1) N. Socolow, op. cit, Vol. II, P. 366.

(2) يورى إيفانوف، " حذار من الصهيونية "، ترجمة محمد كامل عارف، ص 45 - 46.

وفى سنة 1897 كما ذكر من قبل تم تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة زعيمها الأول تيودر هرزل. وقد صاغ هرزل الأفكار الصهيونية في حركة سياسية مرتبطة بالإمبريالية العالمية في كتابه " الدولة اليهودية " وأصبح هو المنظم لها وداعيتها ومندوبها السياسى.

وقد كان لإنشاء قناة السويس بن سنة 1859 و 1869، وخاصة بعد تم لدزرائيلى شراء أسهمها سنة 1875، أثر في توجيه سياسة بريطانيا نحو فلسطين بغية اتخاذها قاعدة تستغل في حماية القناة، وذلك بتشجيع وتأييد المشروع الصهيونى الرامى إلى استعمار فلسطين من قبل اليهود تحت رعاية وحماية الحكومة البريطانية فقد جاء في مذكرات الوزير البريطانى المستر إيمرى قوله: " نحن نرى من وجهة النظر البريطانية الخالصة، إن إقامة شعب يهودى ناجح في فلسطين يدين بوجوده وفرصته في التطور إلى السياسة البريطانية هو كسب ثمين لضمان الدفاع عن قناة السويس من الشمال ولإدراء دور محطة الطرق الجوية المقبلة مع الشرق ".

كما جاء في مذكرات تشرشل وهو آخر بناة الاستعمار البريطانى قوله: " إذا أتيح لنا في حياتنا، وهو ما سيقع حتما، أن نشهد مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها، بل على ضفتى نهر الأردن معا، تقوم تحت حماية التاج البريطانى وتضم نحوا من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية " (1).

5 ـ فلسطين في خطط الاستعمار الأوربى ـ مقررات مؤتمر السير كامبل بنرمان لسنة 1905 أو مؤتمر لندن:

إن نظرية كون الحضارات تمر بدورات متعاقبة تنمو وتزدهر، ثم تشيخ وتذبل وتندثر، إن هذه النظرية أخذت تقلق بال زعماء الاستعمار الأوربى الحديث، مسترشدين بما وقع للحضارات القديمة عبر التاريخ مثل حضارة الفراعنة في مصر وحضارة الصين وحضارة البابليين والأشوريين وغيرها من الحضارات المتأخرة مثل حضارة الإغريق والرومان والحضارة العربية الإسلامية، وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة للوقاية والحذر قبل أن تحل الكارثة الحتمية بالحضارة الأوربية الحديثة، القائمة على الاستعمار، لأن هناك من

(1) خيرى حماد، " الصهيونية "، ص 78 - 80.

المفكرين من كان يرى أن الحضارة الأوربية الراهنة قد دخلت مرحلة الانهيار والاندثار.

وكان من العلماء العرب من أخذ بالنظرية ذاتها، ففى رأى ابن خلدون أن لدى الأمم والدول أعمار طبيعية كما للإنسان، فبعد أن تأخذ الأمم بالدعة والراحة وتنغمس في الملذات والشهوات وتميل إلى الرخاء والترف " تأخذ بمبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها ". وقد ذكر عن نابليون أنه قال بأن أوربا شاخت وأن القوة الآتية تكمن في مكانين: أمريكا بشبابها الطاغى وروسيا بذلها الشديد الذي لابد أن ينفجر عن شئ جديد قوى.

وجاء في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء (ص 182 - 183) وصف للدولة والإمبراطوريات بنفس المعنى هذا نصه: " واعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، واعلم بأن كل دولة لها وقت منه تبتدئ، وغاية إليها ترتقى، وحد إليه تنتهى، فإذا بلغت إلى أقصى غاياتها ومدى نهايتها، تسارع إليها الانحطاط والنقصان وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخرين من القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد، ويضيف ذاك وينقص إلى أن يضمحل الأول المقدم ويستمكن الآتى المتأخر ".

وقد كان أول من تنبأ تنبؤا قاطعا بانهيار حضارة أوربا الحالية الفيلسوف الألمانى أوزوالد سبنجلر الذي أعلن رأيه هذا قبل ثلاثين سنة معززا رأيه بالنظرية القائلة بأن التاريخ الإنسانى ليس خطا مستقيما إلى التقدم، ولكنه دورات متعاقبة النمو والانحلال وإن كل حضارة هى أشبه بإنسان، يولد وينمو ويزدهر ثم يشيخ ويذبل ويموت، ثم تبدا دورة حضارة أخرى في مكان آخر من العالم وهكذا " [1].

(1) كان شينجلر يعمل حتى عام 1910 مدرسًا في سابروكن ودوسلدروف وهامبروغ دون أن يكون لديه شهادة اختصاص أكاديمي، وما أن انتهى عام 1918 إلا وظهر كتاب ضخم في مكتبات ألمانيا يحمل عنوانًا مثيرًا " تدهور الغرب " ولم يلاحظه القراء في بادئ الأمر، ثم اكتشف الناس أهمية الكتاب الذي يضم لأول مرة محاولة لتقرير ما سيحدث في تاريخ المستقبل ومحاولة لمتابعة مراحل لم تحدث بعد من مصير حاضرة الغرب، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الناس ترغب في الاطلاع على ما تضمنه من

ومن أقوال شبنغلر: " إن الحشرات تشبه البشر لأنها تولد وتنمو وتنضج وتموت، ويتكون البشر من حجيرات بايولوجية أما الحضارة فإنها تتألف من البشر الذين يموتون وتخلفهم أجيال جديدة تمام كالحجيرات التي تتغير في أجسامنا كل ثماني سنوات ".

وقد آمن أرنولد توينبى بنظرية شبنجلر في أن التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت. ولكنه قال أن هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب في رأيه أن الحضارة الراهنة تعلمت من التاريخ وعرفت الخطر فهى سوف تتمكن من أن تتجنب تكراره " (1).

وتحسسا بالخطر المحدق بالحضارة الأوربية القائمة على الاستعمار عقد مؤتمر لندن عام 1905 سرا واستمر حتى عام 1907، وقد دعا إليه السير كامبل بنرمان(2). الذي كان يشغل منصب رئاسة الوزارة البريطانية بغية تشكيل جبهة استعمارية موحدة من الدول ذات المصالح المتوافقة في العالم آنذاك وهى: بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا وأسبانيا، باعتبار أن تعاون بريطانيا مع هذه الدول ضروريا لمصلحة بريطانيا في إيقاف المد الاستعمارى الألمانى الجديد من جهة وفى تنسيق التوسع الاستعمارى البريطانى من الجهة الأخرى، واتفقت الدول المذكورة على التعاون الودى بينها وعلى تأليف لجنة من خبرائها تتولى دراسة الوضع القائم ثم تقدم لها مقترحات وتوصيات فيما يتعلق بضمان استمرار نمو المصالح الاستعمارية المشتركة التي كانت تتمتع بها تلك الدول. وهكذا فقد حددت المصالح المشتركة بالدول الاستعمارية إلى تنسيق العمل

آراء فارتفع عدد النسخ المباعة منه حتى أعيد طبعه عدة مرات، ولم تمض عشر سنوات حتى بيعت من الكتاب مائة ألف نسخة، وذلك على الرغم من أن المؤلف لم يحمل شهادة أكاديمية، وكانت طريقة شبنجار تعتمد على مقارنة الحضارات وكان يعتقد بأن التاريخ يمكن أن يكون علمًا كعلم الأحياء أو الفيزياء (انظر: " سقوط الحضارة " لمؤلفه كولن ولسون، ترجمة أنيس زكي حسن، بيروت 1971، ص 126 - 142).

(1) أحمد بهاء الدين، " حضارات تزدهر ثم تهوى "، مجلة العربى الكويتية، العدد 209، نيسان 1976م، ص 6 - 13.

(2) هو السير هنرى كامبل بنرمان، سياسى بريطانى تزعم حزب الأحرار في فترة عصيبة من تاريخ انجلترا وأصبح رئيسا للوزارة البريطانية من سنة 1905 إلى سنة 1908، ولم يلبث أن مات يوم 22 نيسان من الشهر نفسه أى بعد استقالته بـ 17 يوما (دائرة المعارف البريطانية لسنة 1965، 44: 717).

فيما بينها على الرغم من الخلافات القائمة في علائقها السياسية، فأعلن السير كامبل بنرمان عن عقد المؤتمر وكان يتألف من مشاهير المؤرخين وكبار علماء الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ والنفط والزراعة والاستعمار في دول الاتحاد، وكان بينهم البروفسور جيمن جيمس مؤلف كتاب البحوث التاريخية المشهور وزوال الإمبراطورية الرومانية، ولوى مادلين الأستاذ في السوربون ومؤلف كتاب نشوء وزوال إمبراطورية نابليون، وليستر الأستاذ في جامعة لندن، ولتسنخ، وسميث، ودرتنج، وزهروف وغيرهم من مشاهير العلماء والأساتذة، وقال بنرمان يخاطب المؤتمر في تحديد مهمته: "... إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما، ثم تنحل رويدا ثم تزول، والتاريخ ملئ بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة، فهناك إمبراطوريات روما، وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها، فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون السقوط والانهيار، أو تؤخر مصير الاستعمار الأوربى وقد بلغ الآن الذروة وأصبحت أوربا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معالمها؟ بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية، هذه هى مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا...! ".

وقام المؤتمر بدراسة تاريخ الإمبراطوريات وتطوراتها وكيف نشأت وازدهرت ثم تلاشت وانحلت، كما قام ببحث الأسباب التي أدت إلى انهيار هذه الإمبراطوريات بعد بلوغها قمة الحضارة، ثم درس الإمبراطوريات الراهنة، وبعد مضى أكثر من سنة استمر في الدراسة قدم المؤتمر نتائج ما توصل إليه على شكل تقرير سرى خاص إلى وزارة الخارجية البريطانية، ولما رأت خطورته أحالته على وزارة المستعمرات البريطانية، ثم اختفى التقرير من غير أن يعرف أحد به. وقد بقى هذا التقرير منسيا حتى قبيل الحرب العالمية الأولى " حينما نشره صحفى بريطانى صهيونى في معرض الدفاع عن الوطن القومى اليهودى في فلسطين، واستشهادا بآراء وقرارات الحكومة البريطانية وسادة الاستعمار العالمى على ذلك وتبريرا لقيام (إسرائيل) كضرورة اقتصادية وسياسية واجتماعية لأوروبا ولمصالحها وسيطرتها في الشرق (الثقافة القومية الاشتراكية، دمشق، 1972 - 1973، ص 71).

لقد احتوى التقرير على مقدمة شرحت فيها مصالح الدول الاستعمارية في العالم القديم وفى مقدمتها بريطانيا التي لها مصالح في جميع القارات، وكذلك

لفرنسا مصالح أيضا في القارة الأفريقية وفى الهند الصينية وجزر المحيط الهادى. أما إيطاليا فمصالحها في ليبيا وكذلك فإن لأسبانيا مصالح حيوية في المغرب وجزر الأطلنطى، ثم قسم العالم إلى مناطق نفوذ وأعطى لكل دولة من دول الاتحاد منطقة أو أكثر فيه.

ثم انتقل التقرير بعد ذلك إلى إثبات حقيقة أساسية مشتركة في كل الدول الاستعمارية، وهى أن البحر المتوسط هو الشريان الحيوى للاستعمار ولمصالح كل الدول المتحدة، الآنية والمقبلة. فهو الجسر بين الشرق والغرب، وهو الممر الطبيعى إلى آسيا وإلى أفريقيا، وهو ملتقى طرق العالم، فلابد لنجاح أية خطة تستهدف حماية المصالح الأوربية المشتركة من السيطرة على هذا البحر وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية، لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكم في العالم (المرجع السابق، ص 74).

وبعد استعراض أسباب زوال الإمبراطوريات السابقة، شرح الباحثون مصدر الخطر الذي يهدد كيان الاستعمار ويهدد إمبراطوريته ويزيلها كما زالت الإمبراطوريات السابقة. فتوصلوا إلى أن الخطر يكمن في البحر المتوسط وفى شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص. " فعلى الجسر البرى الضيق الذي يصل آسيا بأفريقيا، وتمر فيه قناة السويس شريان حياة أوربا وعلى جانبى البحر الأحمر وعلى طول ساحلى البحر الهندى وبحر العرب حتى خليج البصرة حيث الطريق على الهند وإلى الإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق، في هذه البقعة الشاسعة الحساسة يعيش شعب واحد، تتوافر له من وحدة تاريخية ودينية ووحدة لسانه وآماله، كل مقومات التجمع والترابط والاتحاد، وتتوفر له في نزعاته التحررية وفى ثرواته الطبيعية ومن كثرة تناسبه كل أسباب القوة والتحرر والنهوض، ويبلغ تعداده الآن 35 مليون نسمة، ويمكن أن يرتفع في مدى قرن واحد إلى مائة مليون نسمة بالنسبة إلى شرائعه الإسلامية التي تتيح تعدد الزوجات وتؤدى إلى زيادة النسل والتكاثر. " فكيف يمكن أن يكون وضع هذه المنطقة إذا توحدت فعلا آمال شعبها وأهدافه، وإذا اتجهت هذه القوة في اتجاه واحد؟ ".

واستطرد التقرير في التساؤل:

" ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتسبات الثروة الصناعية الأوربية إلى هذه المنطقة!. وماذا لو انتشر التعليم وعممت الثقافة في أوساط هذا الشعب؟

وماذا سيكون إذا تحررت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها؟ ".

ويجيب التقرير على هذا السؤال، فيقول:

" عند ذاك ستحل الضربة القاضية حتما بالإمبراطوريات الاستعمارية، وعندها ستتبخر أحلام الاستعمار بالخلود، فتنقطع أوصاله ثم يضمحل وينهار كما انهارت إمبراطوريات الرومان والإغريق " (المرجع السابق، ص 73 - 74).

وهذا نص القسم الذي أمكن الاطلاع عليه من التقرير:

" إن الخطر ضد الاستعمار في آسيا وفي أفريقيا ضئيل، ولكن الخطر الضخم يكمن في البحر المتوسط، وهذا البحر هو همزة الوصل بين الغرب والشرق، وحوضه مهد الأديان والحضارات، ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان، وكل مقومات التجمع والترابط. هذا فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية، فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوربية، وانتشر التعليم فيها وارتفعت الثقافة؟ إذا حدث ما سلف فستحل الضربة القاصمة حتما بالاستعمار الغربي، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي:

1- على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزأة هذه المنطقة، وتأخرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل.

2- ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الأسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري، قوى وغريب، يحتل الجسر البرى الذي يربط أوربا بالعالم القديم ويربطها معا بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة " [1].

يتضح مما تقدم أن مستقبل فلسطين ومصيرها تقررا في هذا التقرير.

وتدل الحوادث التي وقعت بعد ظهور هذا التقرير دلالة واضحة على أن

(1) انظر: " وثائق التدخل في الوطن العربي "، جمعها موسى الكاظم التونسي، دمشق 1972م، ج1، ص 47 - 48؛ " اليهودية " للدكتور أحمد شلبي، ط3، 1973، ص 99 - 102.

خبراء السياسة البريطانية ومعهم خبراء الدول ذات المصالح المشتركة أخذوا يخططون بدقة متناهية الوسائل التي تأمل تنفيذ وتحقيق المنهاج المقترح. فأقيم الحاجز البشرى من عنصر غريب على شكل قوة " صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة "، وذلك عن طريق تنفيذ وعد بلفور وغرس إسرائيل شوكة في قلب المنطقة.

وهنا التقت الصهيونية بمخطط الاستعمار الجديد، فمنذ سنة 1907 سار الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية جنبا إلى جنب في طريق القضاء على عروبة فلسطين وإقامة (دولة إسرائيل) فيها فسارعت بريطانيا وهى سيدة الاستعمار حينذاك إلى الأخذ بيد الصهيونية واتفقت مع زعماء الصهيونية العالمية على تأسيس دولة إسرائيل في فلسطين ونسقت معهم العمل على تحقيق هذا الهدف المنشود، ثم نظمت المخططات السياسية للحيلولة دون اتحاد البلاد وذلك بوضع العراقيل في وجه أية محاولة ترمى إلى تحقيق الوحدة بينها،أما فيما يتعلق بإبقاء الشعب على ما هو عليه من تأخر وجعل فقد قام الاستعمار البريطانى بسن تشريعات العشائر في الدول العربية عندما كانت تحت الاحتلال أو الانتداب خدمة لأغراضه في المنطقة. وهذه التشريعات كانت تستهدف المحافظة على القيم والتقاليد القديمة التي تحجرت وراء قرون طويلة من التخلف وإظهار الكيانات القبلية وتنمية دور القبائل وزيادة وزنها الاجتماعى ومنع اندماجها في المجتمع العربى ليبقى المجتمع العربى في حالة من التفكك والانقسام.

ففى العراق قامت سلطات الاحتلال البريطانى باستصدار نظام دعاوى العشائر لسنة 1918 الذي وضعه المستر هنرى دوبس من أعوان المندوب السامى البريطانى والذى كان يهدف إلى تنمية العادات المحلية للعشائر والمحافظة عليها من الاندثار. وقد استمر هذا النظام قائما إلى أن ألغته ثورة تموز لعام 1958. كما سن قانون تسوية حقوق الأراضى رقم 50 لسنة 1932 وزعت الأراضى الزراعية بموجبه على رؤساء العشائر بعد أن كانت ملكية الأرض تعود إلى العشيرة بأسرها فثبت هذا القانون حقوق الرؤساء فيها.

ومما ساعد على تنفيذ هذا المخطط الصلاحيات الواسعة التي منحت إلى رؤساء تسوية الأراضى، وهم بريطانيون، بعد أو أوكل إليهم تطبيق القانون وفق السياسة البريطانية المرسومة، وهكذا برزت في العراقة حفنة من الإقطاعيين المتنفذين والموالين للاستعمار الذي أصبح حليفهم الطبيعى وشريكهم في مقاومة

أمانى الشعب وتطلعاته التقدمية التحررية، وقد ألغت ثورة تموز هذا النظام الإقطاعى بتحديد الملكية بموجب قانون الإصلاح الزراعى رقم 30 الصادث في 30 أيلول 1958.

وفى الأردن قامت السلطات الإنجليزية بسن أول قانون لمحاكم العشائر عام 1924، ثم حل محل هذا القانون محاكم العشائر لسنة 1936 ومنح بموجبه قائد الجيش سلطات واسعة في الإشراف على العشائر ومعالجة شؤونهم.

وفى فلسطين قامت السلطات الإنجليزية أثناء فترة انتدابها على هذه البلاد بوضع عدد من التشريعات لتحقيق الأهداف نفسها والتى لم تزل نافذة حتى اليوم في الضفة الغربية من الأردن (21ب).

وفى سورية سار الفرنسيون على النمط نفسه حتى تكون قانون العشائر الصادر سنة 1940 بحيث أصبحت العشائر في بادية الشام بموجب هذا القانون دولة داخل دولة. وفى ذلك يقول الأستاذ حبيب جاماتى: " مجموعة من الناس مكنتهم شريعة الاستعمار من الخروج على القانون!.. خلعت عليهم الإقطاعات وأعفتهم من الخدمة العسكرية وأتاحت لهم حمل السلاح.. حمتهم من الضرائب بل مكنتهم من الإتاوات على الضعفاء!.. ثم بعد إصدار قانون الإصلاح الزراعى سنة 1958 الذي ألغى بموجبه نظام الإقطاع في الإقليم السورى، كان لابد من إصدار قرار متمم له، بإلغاء قانون العشائر الذي لم يكن ضرره أخف من الإقطاع. وبإلغاء هذا القانون العجيب تكون قد انطوت صفحة سوداء من صفحات الماضى البغيض، لأنها صفحة كتبتها يد المستعمر للتفريق بين أبناء الوطن الواحد [1].

وكانت البادرة البارزة التي تلت ظهور تقرير لجنة كامبل بزمن تلك الحرب الشعواء غير المعلنة التي شنها الاستعمار على اللغة العربية الفصحى (لغة الوحى التي نزل بها القرآن الكريم رحمة للعالمين) والتى استخدم فيها جميع صنوف أسلحة التضليل والتزييف، وشتى الأساليب والحيل بقصد تفريق المجتمعين عليها تحت ستار من الرغبة في الإصلاح والتطور ومسايرة العصر. ولا غرو فقد اكتشف فيها الرباط المقدس الذي يشد الملايين العربية بعضهم إلى بعض في مختلف أقطارهم وديارهم من المحيط إلى الخليج والأساس المتين لجمع كلمتهم وإقامة وحدتهم فيما توافرت لها الظروف الملائمة. وإلى جانب الملايين العربية

(1) فاروق الكيلانى، " شريعة العشائر في الوطن العربى "، ص 83 - 85.

توجد مئات من الملايين المسلمة وغير المسلمة التي تستخدم الحرف العربي في كتاباتها [1]. والتى بمقدور اللغة العربية، باعتبارها لغة الدين والوحى، بما تتميز به من الخصائص التي لا تتوافر لأية لغة عداها لما فيها من جمال في الكتابة وقدرة على نطق جميع الأصوات التي يستخدمها الإنسان والحيوان أيضا للتعبير على حاجاته ورغباته وأداء تلك الأصوات كتابة أن تضمها إلى الملايين العربية.

واللغة العربية، فوق هذا وذاك، هى اللغة الأم التي تفرعن عنها جميع لغات الدنيا وحاملة لواء الحضارات العربية المتعاقبة التي سايرت الإنسان منذ أن وجد على الأرض والتى تعود إلى أجيال سحيقة في التاريخ تصل إلى القرن التسعين قبل الميلاد في مملكة إيبلا والقرن الستين في مارى وإلى أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد في كنعان، وبلغت أوج ازدهارها عند مطلع القرن الثلاثين، في كل من حوضى وادى النيل ووادى الرافدين في حقبة زمنية واحدة وعلى مستوى واحد من العظمة والجلال.

والاستعمار، على حداثته، أخذت شعوبه تشعر بالهرم نسبيا وتشكو من نقص مواردها الطبيعية على عكس الشعوب العربية الأخرى التي يمكن للغة العربية الفصحى أن تجمعها في وحدة متكاملة فيما لو توافرت لها الظروف الملائمة حيث مازالت تحافظ على نضارتها وسريان ماء الشباب في عروقها وتحتفظ بقائض في مواردها الطبيعية ولأجيال عديدة لا يمكن حصرها. وعندئذ ماذا سيكون مصير وإلى ماذا ستؤول خسارته الباردة الجامدة التي بناها على الأخذ دون العطاء وامتصاص دماء الشعوب فيما لو قيض قيام مثل هذه الوحدة.

فاللغة العربية الفصحى إذن تحمل في طياتها شبحا أخذ يهدد الاستعمار ويرى فيه مصيره المحتوم ولابد له إن هو أراد الحول دون ذلك المسير أو تأخيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى يجد لنفسه مخرجا أن يعمل جادا وأن يركز على تقويض اللغة العربية الفصحى وتأديب المجتمعين عليها لهجرها والانتقال إلى غيرها. فأخذ يوجه إليها الاتهامات الباطلة كقوله: " إن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة عامل من أهم عوامل التخلف الثقافى " وينشر الدعوات التي تطالب تارة بالأخذ بإحدى اللهجات العامية في الدول العربية كالمصرية أو السورية أو العراقية وطورا باستبدال الحروف الأبجدية العربية بالحروف اللاتينية ومرة ثالثة بإسقاط بعض أبواب النحو أو على الأقل تعديل بعض قواعده.

(1) حبيب جاماتى، مجلة المصور المصرية، عدد 10 أكتوبر 1958.

وقد وجد من ساعد الاستعمار في حملته المسعورة ضد اللغة العربية الفصحى: لغة القرآن بداوته للأخذ بالآداب الحديثة أى ما يسمى بالأدب الشعبى ويقصد به كل ما هو مكتوب بغير الفصحى.

وخلاصة القول: أن هذه الدعوات كانت تستهدف تفريق المسلمين عامة، والعرب خاصة، عن طريق تفريقهم في الدين، وتفريقهم في اللغة وتفريقهم في الثقافة وقطع الطريق على كل توسع محتمل للغة العربية بين مسلمى العالم لمنع وحدتهم الكاملة. ولقد استطاع الاستعمار أن يحرز الحرف العربى في كتاباتها واستخدام الحرف اللاتينى عوضا عنه مقابل إقطاعها أجزاء من سورية والعراق، ولكنه لاقى فشلا ذريعا داخل الوطن العربى ولم يكلل بالنجاح أى مسعى من مساعيه ولا دعوة من دعواته وهذا مما يدل على عمق جذور اللغة العربية.

وترجع البدايات الأولى لنمو الدعوة للعامية إلى أوائل القرن الثامن عشر عندما أخذت دول أوربا تنشئ معاهد خاصة لتدريس اللهجات العربية العامية. وكان الغرض من إنشاء تلك المعاهد تخريج السفراء والقناصل وأعضاء الهيئات الدبلوماسية ولتخريج الجواسيس وغيرهم من الهيئات والأفراد الذين يوفدون إلى البلدان العربية المختلفة،وقد استعانت هيئات التدريس في تلك المعاهد ببعض المغتربين الموجودين آنذاك في دولها كما استعانوا بهم في التأليف. بيد أنه لم يكن لتلك المساعى أية خطورة على اللغة الفصحى إلى أن أخذ بعض المستشرقين ممن أوفدوا إلى الوطن العربى خصيصا لهذه الغاية ينشرون مؤلفاتهم ومقالاتهم باللغة العامية ويدعون للأخذ بها مستغلين مراكزهم ونفوذهم للوصول إلى غايتهم المنشودة، وكان من أبرز أوائل أولئك المستشرقين الدكتور ولهلم سبيتا.

وخلفه الدكتور كارل فولرس (1857 - 1909) وكلاهما من الجنسية الألمانية وعملا مديرين لدار الكتب المصرية. كان سبيتا أول من دعا إلى الأخذ باللغة العامية المصرية وإلى استبدال الحرف العربى بالحرف اللاتينى عندما وضع كتابه: " قواعد العربية العامية في مصر "، وذلك سنة 1880. أما الدكتور فولرس الذي نهج نفس منهج سلفه فقد زاد عليه بأن استنبط حروفا لاتينية لكتابة العامية المصرية.

وتلاهما في هذا الاتجاه المستشرقان البريطانيان سلدن ولمور ويلوا اللذان عملا كقاضيين في المحاكم الأهلية في القاهرة عندما وضع الأول سنة 1901 كتابا أسماه

" لغة القاهرة " ضمنه قواعد لهذه اللغة ودعا لاتخاذها لغة للعلم والأدب، كما اقترح فيه كتابتها بالحروف اللاتينية، وتصدرت الصحف لهذه الدعوة مشيرة إلى مكامن الخطر فيها والتى لا يقصد منها غير محاربة الإسلام في لغته وكانت ردة الفعل من القوة أن ألهبت خيال الشاعر حافظ إبراهيم ودفعته إلى وضع تائيته العصماء التي مطلعها:

رجعت لنفسي فاتهمت حماتي ::: وناديت قومي فاحتبست حياتي

حاملا على تلك الدعوة الهدامة ومعرضا فيها على لسان اللغة العربية ميل أبنائها عنها إلى اللغات الأجنبية.

وتلا ولمور ويأول في هذا المضمار المهندس البريطانى المشهور ويليام ويلكوكس الذي كان أشرس المستشرقين وأكثرهم نشاطا في الدعوة إلى إقصاء اللغة الفصحى واتخاذ العامية بديلا عنها، فويلكوكس لكثرة ما تجول في البلدان العربية كان يعلم أن الفصحى هى سر هذا الترابط القومى في الشعور بين العرب خاصة والمسلمين عامة ويعلم مدى تثبيتهم بها باعتبارها لغة القرآن، لذلك كان شديد الحرص في دعوته وللوصول إلى الغاية المنشودة ونسف ذلك الترابط القومى، فقد سعى للفصل بين الجماهير العربية ولغتها القومية. ففى محاضرة ألقاها سنة 1893م في هذا الاتجاه أبدى تفاؤله بمستقبل الشعب المصرى وأعرب عن ثقته في قدرته على اكتساب ملكة الاختراع والإبداع إن اتبع مشورته ولبى دعوته للكتابة والتأليف بالعامية، وجدد دعوته إلى هجر اللغة العربية الفصحى سنة 1926 عندما نشر رسالة تحت عنوان " سورية ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم اللغة اليونانية وليس العربية " وكذلك ترجم قطعا من روايات شكسبير إلى ما أسماه باللغة المصرية ونشرها.

مسرحا للدعوة إلى العامية بدعوى ضرورة الاطلاع على أدب شكسبير ولاسيما الطلبة الذين يمثلون الجيل الصاعد، كما نقل إلى العامية أجزاء من الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد وألف أيضا كتابا أسماه " الأكل والإيمان " ضمنه إرشادات صحية وفوائد طبية.

ولم يكتف أولئك المستشرقون بتلك الكتب والمقالات والمحاضرات بل تعدوا ذلك إلى تدوين ما أسموه " بالآداب الشعبية والفولكلورية " باللغة العامية كالأزجال المصرية والأغانى الشعبية والأمثال والحكمة في ذلك إدخال العامية في نماذج من المطبوعات القابلة للتداول وأخذت الدعوة في الانتشار عندما

أدخلت اللهجة السوقية إلى المسرح الهزلى ومنه انتقلت إلى المسرح الجاد.

وكذلك فقد حارب الاستعمار الفرنسى اللغة العربية الفصحى في شمال أفريقيا حربا لا تقل في شراستها عنفا عن حرب الاستعمار البريطانى لها في مصر ووضع مستشرقوه كتبا عدة في دراسة اللهجات البربرية ووضع القواعد لها بقصد إحلالها محل اللغة العربية الفصحى. وكان على رأس الحركة الرامية إلى الكتابة باللغة العامية وبالحرف اللاتينى المستشرق لويس ماسينيون الذي حاول أن يثبت دعوته هذه في المغرب العربى وفى مصر والعراق [1] ولاسيما في سورية ولبنان.

وقد تمكنت تلك المساعى والجهود المبذولة أن توصل الدعوة للعامية إلى كبريات الصحف والمجلات المصرية وأخذ بعضها بالترويج لها. ففى سنة 1881 اقترحت مجلة المقتطف كتابة العلوم بلغة الحديث أى بالعامية ودعت رجال الفكر إلى بحث اقتراحها ومناقشته. وأكدت المقتطف موقفها المؤيد للعامية وأثارت الصراع بين الفصحى والعامية من جديد بتقريظها لكتاب ولمور الذي أصدره سنة 1901، ووقفت مجلة الأزهر إلى جانب المقتطف في الدعوة إلى العامية وبحرارة تفوق حرارة ويلكوكس الذي أغرى المصريين بمكافآت مالية ضخمة للتبارى في الكتابة باللغة العامية.

أما مجلة الهلال وإن لم تكن شديدة الحماس للعامية كزميلتها " المقتطف "، فقد نشرت مقالا لسلامة موسى يثنى فيه على ويلكوكس كمهندس وكأديب وكواحد من الإنجليز المخلصين لمصر وضمنه اقتراحه بإلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات مدعيا أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصرى ولا تنهض به وإنما تبعثر الوطنية المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية، وامتدح سلامة موسى رسالة ويلكوكس " سورية ومصر وشمال أفريقيا تتكلم اليونانية وليس العربية " وأشاد بها وكرر تأييده لدعوته في هجر الفصحى هجرا تاما. وكان من الذين شاركوا في هذه الحملة الظالمة على الفصحى " لويس عوض " الذي دعا هو الآخر إلى نبذ الشعر الموزون وإحلال العامية محل الفصحى.

(1) انظر كتابه عن اللهجات العامية البغدادية:
ترجمة إلى العربية الدكتور/ أكرم فاضل، ونشرته وزارة الإرشاد العراقية سنة 1962 ضمن المكتبة الفولكلورية (2).

وبلغت الدعوة إلى العامية ذروتها عندما تمكنت من التسلل إلى " مجمع اللغة العربية " وظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات حول " اللهجة العربية العامية " 1934 - 1937 كتبها عضوه المدعو عيسى إسكندر المعلوف أظهر فيها عداءً صريحا للعربية الفصحى وكان قد سبق تلك المقالات بمقال نشره سنة 1902 في مجلة الهلال دافع فيه عن اللهجات السوقية مؤكدا أن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب التخلف الثقافي في الدول العربية. كما ادعى أن تعلق المسلمين باللغة الفصحى هو أمر لا مبرر له لأن هناك مسلمين كثيرين يتحدثون العربية ولا يكتبون بها فعلا.

وتبعه عضو آخر من أعضاء هذا المجمع هو عبد القادر المغربي الذي نشر مقالا في مجلة المجمع سنة 1936 تحت عنوان " دراسة في اللهجة المصرية "، وتلاه عضو آخر هو عبد العزيز فهمي الذي تقدم باقتراح يرمي للأخذ بالحروف اللاتينية لكتابة العربية في الجلسة المنعقدة في 3 / 5 / 1943، وتناول موضوع اللغة العامية عضو آخر هو محمد فريد أبو حديد في دراسة عن خصائص اللغة العامية اختلف لها ذرائع ومبررات لا طائل تحتها.

وتدل ردود الفعل القاسية التي كان يوجهها المناوئون لفكرة اتخاذ العامية والحروف اللاتينية للكتابة وما شابه ذلك على أن الرأى العام كان مع العربية الفصحى وإلى جانب تلك الردود وهكذا فقد آلت جميع تلك المساعى المبذولة للقضاء على اللغة العربية الفصحى إلى فشل ذريع.

هذا غيض من فيض عن مساعى الإنجليز للقضاء على اللغة العربية الفصحى ووأدها في مصر ليتم للاستعمار تنفيذ منهاجه الرامى إلى هدم التراث العربى من أساسه والتخلص من القومية العربية المرتبطة باللغة العربية الفصحى (لغة القرآن) وقد عرضناها جملة لإظهار شراسة الاستعمار الذي كان الإنجليز في مقدمة الساعين لتحقيق أهدافه في البلاد العربية وقد فشلت جميع تلك الجهود المبذولة في هذا المضمار وانحسر الاستعمار وبرزت القومية أكثر إشراقا وتألقا. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مدى تغلغل القومية العربية في الأرض العربية والنفس العربية وعلى قدرتها الفائقة على الصمود وتخطى كل هذه التيارات المصطنعة المشبوهة ولابد في أنها ستصمد في وجه الاستعمار الجديد

وستخرج مكللة بأكاليل الظفر بإذن الله [1].

6 ـ فكرة استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء:

كانت فلسطين كما سبق ذكره الهدف الأساسي في مشروعات هرتزل لاستيطان اليهود وتأسيس دولة يهودية فيها [2]، إلا أن محاولاته المباشرة وغير المباشرة في هذا السبيل، أى محاولة إقناع السلطان عبد الحميد بالموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، باءت جميعها بالفشل [3]، ففكر هرتزل أن يتجه إلى

---

(1) راجع " الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر " تأليف محمد محمد حسين 1954 - 195،
2: 334 - 361، " تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر " تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، مجلة " المثقف العربي " وزارة الإعلام أيلول 1974 صفحة 78 - 86، " التبشير= =والاستعمار في البلاد العربية " تأليف الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ بيروت 1973.

(2) حبيب جاماتي، مجلة المصور المصرية، عدد 10 أكتوبر 1958.

(3) كان اتصال هرتزل بالسلطان عبد الحميد عن طريق وسيط يدعى شيفاليه دي نيولنسكي C.de Newlinsky كانت له صلة بالباب العالي في استامبول ففاتح السلطان عبد الحميد في طلب منح اليهود بعض الأراضي في فلسطين بغية إنشاء مستوطنة مستقلة على نمط جمهورية فينيسيا، فكان الرد القطعي بأن قال: " انصحوا دكتور هرتزل بأن يحجم عن أية خطوة أخرى في هذا الموضوع لأني لا أستطيع أن أفرط بقدم مربعة من الأرض لأنها ليست ملكي وإنما هي ملك الشعب الذي قاتل من أجلها وهي معجونة بدمه.. ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا قدّر لمملكتي أن تتبدد فعندئذ قد يحصلون على أرض فلسطين مجانًا، أما قطع أي شبر من أرضنا هو بمثابة قطع لحم من جسمنا ".
هذا ما ذكره باربور نقلاً عن يوميات هرتزل المنشورة في تل أبيب سنة 1934 انظر:
N. Barbour, "Nisi Dominus - A Survey of the Palestine Controversy", London, 1946, p. 45.
وهناك ما يدل على أن السلطان عبد الحميد وافق في عام 1902 بعد مفاوضات طويلة مع هرتزل الذي عرض عليه مبلغ 1.600.000 جنيه إسترليني مقابل منح اليهود حق الاستيطان الاستعماري في العراق وسورية والأناضول واستثنى فلسطين مما دفع هرتزل إلى رفض العرض، (انظر: " تاريخ فلسطين الحديث "، للدكتور الكيالي نقلاً عن مذكرات هرتزل الكاملة، ج4، ص 1302).
ويجد القارئ في كتاب الجنرال التركي رفعت آتيلفان، " الخطر المحيط بالإسلام " بحثا مفصلاً عن دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد والمؤامرات التى دبرت

الحكومة البريطانية التي كانت تظهر العطف على الحركة الصهيونية منذ نشوئها بغية حصوله على معاونتها في استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء كبداية لتحقيق المشروع الأصلي الذي يرمي إلى استعمار فلسطين، فجعل من مدينة لندن سنة 1902 المقر المالي للحركة الصهيونية، وقد لاقى هرتزل تشجيعا من المسئولين البريطانيين فقابل المستر جوزف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني وفاتحه في موضوع العريش وسيناء، ويروى هرتزل أنه في نهاية المقابلة سأل الوزير البريطاني هل يوافق على إنشاء مستعمرة يهودية في شبه جزيرة سيناء؟ فأجابه: نعم إذا وافق اللورد كرومر مندوب بريطانيا السامى في مصر. وفى اليوم التالى قابل هرتزل اللورد لانسدون وزير الخارجية فأعرب له الوزير عن تأييده لفكرة إقامة مستعمرات يهودية في منطقة العريش وشبه جزيرة سيناء وعن استعداده لكتابة رسالة إلى اللورد كرومر يوصيه باستقبال ممثل هرتزل وتسهيل مهمته الاستطلاعية.

وقد أسفرت زيارة ممثل هرتزل المدعو " جرينبرج " لمصر عن تأييد اللورد كرومر ورئيس وزراء مصر حينذاك للاقتراح الرامى إلى استعمار اليهود لشبه جزيرة سيناء، واقترح اللورد كرومر إيفاد بعثة دراسية من الخبراء لبحث هذا المشروع والطريقة التي يمكن بواسطتها رى الصحراء من مياه النيل، ولكن خبراء الرى عارضوا مشروع إرواء الصحراء من النيل مما اضطر هرتزل إلى التخلى عن المشروع كلية.

7 ـ اقتراحات لاستعمار أوغندة وموزمبيق وبعض الكونغو ثم إعادة التركيز على فلسطين.

وبعد فشل مشروع سيناء تقدم تشمبرلين باقتراح إلى هرتزل يرمى إلى استيطان اليهود أوغندة في أفريقيا الشرقية، وقد جرت اتصالات حول الحصول على موزمبيق من حكومة البرتغال، كما أنه ورد ذكر إمكانية استعمار أجزاء من الكونغو، ولكن هرتزل قال في تعليقه على ذلك بأن هذه المشاريع كلها لن تغير

لإسقاطه بسبب عدم رضوخه لمطالب اليهود لمنحهم امتيازات في فلسطين، ففي ذلك يقول: " أن الشخص الوحيد في تاريخ الأتراك عمومًا الذي عرف حقيقة الصهيونية وقدر أضرارها على الأتراك والإسلام وكافحها مدة طويلة لتحديد شرورها هو السلطان عبد الحميد الثاني، إن هذا السلطان التركي العظيم كافح هذه المنظمات الخطرة مدة ثلاث وثلاثين عامًا بذكاء وعزم وإرادة مدهشة جدًا كالأبطال.

من المخططات الصهيونية الأصلية بشأن استعمار فلسطين وأضاف أن آمالنا في تحقيق هدفنا النهائى لم تكن في يوم من الأيام أقوى مما عليه الآن، وسيقوى نضالى من أجل أرض صهيون ويعظم ويشتد بفضل القوى الجديدة التي أصبحت في جانبنا.

وبموت هرتزل في الثالث من تموز 1904 ماتت المشاريع الصهيونية المتعددة إذ اتخذ المؤتمر الصهيونى السابع قرارا بالتخلى عن جميع المشاريع الاستعمارية الصهيونية خارج فلسطين، وانصرفت بالقيادة الصهيونية الجديدة في السنوات التالية إلى مشاريعها الاستعمارية في فلسطين بزعامة الدكتور حاييم وايزمن الذي وجد في بريطانيا خير حليف للصهيونية خاصة بعد أن تحقق النصر للحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى وفرضت السيطرة البريطانية على فلسطين. وكان قد تمكن مكتب فلسطين الذي أنشأته المنظمة الصهيونية في يافا في عام 1908 وبمساعدة الصندوق القومى اليهودى، من بناء منطقة سكنية جديدة سنة 1909 أصبحت نواة مدينة تل أبيب. وقد نشطت المؤسسات الصهيونية المالية في بناء الوطن القومى اليهودى في فلسطين وذلك بشراء الأراضى وتدريب المستوطنين وإنشاء المدارس المهنية حتى تمكنت من توطين نحوا من أربعين ألف يهودى في فلسطين في فترة ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، ثم توقفت أعمال المؤسسة الصهيونية مؤقتا عن العمل بسبب الحرب، ولم تكد الحرب تنتهى حتى بادر الصهيونيون إلى إعادة تنظيم الحركة الصهيونية على نطاق عالمى، فتم عقد المؤتمر الصهيونى في لندن سنة 1919 الذي أسفر عن قيام أول تنظيم للحركة الصهيونية داخل فلسطين الذي ما لبث أن تحول إلى الوكالة اليهودية بدوائرها السياسية والتنظيمية والمالية والدعائية وبمكتبها المتخصص في شئون الهجرة، واستكملت الحركة الصهيونية في هذا المؤتمر وفى المؤتمر الذي تلاه في لندن أيضا في عام 1920م وفى مقدمتها الصندوق القومى الجديد للإسكان والاستعمار [1].

8 ـ محاولات لتوطين اليهود في العراق:

وقد كتب الدكتور غروبا وزير ألمانيا المفوض في العراق في مذكراته يقول: " وقد حاولت بعض المنظمات اليهودية الإنجليزية والفرنسية مرات عديدة أن توطن في العراق مجموعات من الفلاحين اليهود من أوربا الشرقية لاتساع

(1) خيرى حماد، " الصهيونية " ص 43 - 49.

الأرض ووفرة الماء في العراق مع قلة السكان الذين يقومون بزراعتها، وفى سنة 1907 أوفدت " جمعية التوطين اليهودية " التي مقرها لندن، والتى كانت تتعاون تعاونا وثيقا مع " جمعية الاتحاد الإسرائيلى " في باريس، اليهودى الفرنسى " نييغو " إلى بغداد لدراسة موضوع التوطين، وقد بقى " نييغو " هذا أربعة أشهر أو خمسة في بغداد.. واقترح توطين خمسين ألف يهودى، رسوى وبولونى، فأيد المشروع وزير مالية تركيا جاويد بك ولكن عبد الحميد رفضه... وكذلك تسلم الملك فيصل الأول خلال زيارة له في لندن في أيلول سنة 1933 اقتراحا بتوطين مئة ألف يهودى في دجلة السفلى، في المنطقة بين العزيزية وكوت الأمارة، وعرضت على الحكومة العراقية في حالة قبولها بعض الفوائد المالية، وخاصة تسهيلات في الحصول على قرض كبير. وكان المفوض أن يكون قسم من هؤلاء المائة ألف يهودى من مهاجرين ألمانيا، فأرسل الملك فيصل هذا الاقتراح إلى الحكومة العراقية للنظر فيه [1].

9 ـ الصهيونية تنشط بعد الحرب العالمية الأولى وتعمل على تحقيق أهدافها بأسناد من بريطانيا:

ولقد أصبح الباب مفتوحا على مصراعيه أمام الصهيونية بعد احتلال الحلفاء لفلسطين في أواخر الحرب العالمية الأولى وراحت تعمل بكل نشاط في سبيل تحقيق مخططها الرامى إلى إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. وقد غدا وعد بلفور بعد قبوله في مؤتمر سان يرمو في عام 1920[2] دستور السياسة البريطانية في فلسطين يهتدى به في تنظيم مخططات بريطانيا الاستعمارية خاصة بعد أن أقر مجلس عصبة الأمم في 24 تموز من عام 1922 انتداب بريطانيا عن فلسطين، فسارت الصهيونية تركز جهودها على تنظيم الهجرة

(1) " العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب "، ترجمة نجدة فتحى صفوة، 1969، ص 123 - 124.

(2) إن وعد بلفور هو عبارة عن خطاب موجه من وزارة الخارجية البريطانية سنة 1917م إلى " لورد روتشيلد " بوصفه ممثل اللجنة السياسية التابعة للمنظمة الصهيونية، وفى هذا الخطاب يعلن وزير الخارجية البريطانية باسم حكومته أنها تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين، وتريد أن تبذل كل جهودها لتحقيق هذا الهدف، على أن يكون من المفهوم بوضوح أنها لن تفعل أى شئ قد يضر بالحقوق الدينية أو المدنية الخاصة بالجماعات غير اليهودية في فلسطين.

اليهودية إلى فلسطين وإقامة المستعمرات اليهودية فيها لوضع أسس الوطن القومى حتى ارتفع عدد اليهود في فلسطين من 40 ألف قبل نشوب الحرب العالمية الأولى إلى 55 ألف في عام 1919 وإلى 108 ألف في عام 1925، وإلى 300 ألف في عام 1935، وإلى 650 ألف في عام 1948 [1].

وبعد أن وثق الاستعمار البريطانى بأن الوضع أصبح مهيئا لإقامة الدولة اليهودية قرر إحالة القضية إلى الأمم المتحدة التي أقرت مشروع التقسيم وقيام إسرائيل في الرابع عشر من مارس عام 1948.

وكان وايزمن قد تمكن أثناء الحرب من إقناع الحكومة البريطانية بتكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش إسرائيل الذي حارب خلال الفترة التي تلت إعلان قيام دولة إسرائيل، وكان لهذه الفرقة علمها المستقل وقد أصبح ذلك العلم علم دولة إسرائيل.

وهكذا نفذت الخطة الجهنمية المنطوية على طرد مليون عربى من وطنه وإحلال شرذمة من شذاذ الآفاق من مختلف أنحاء العالم محلها بالاستناد إلى حرب الإنجليز وادعاءات وهمية زائفة بحق أنسال بنى إسرائيل في فلسطين.

10 ـ الصهيونية تنتقل في نشاطها إلى أمريكا:

وكان للقرار الذي اتخذته المؤسسة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الأولى الخاص بانتقال نشاطها إلى أمريكا أثره في تطور القضية الفلسطينية على الصعيد الدولي ولكن بالرغم من أن الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة إلى التركيز على الولايات المتحدة الأمريكية بقيت بريطانيا مركزا رئيسيا للنشاط الصهيونى طالما أن بريطانيا مازالت هى الدولة المنتدبة في فلسطين، وعلى هذا ظل قادة الحركة الصهيونية يستغلون النفوذ الصهيونى في أمريكا للضغط على مركز السلطة في بريطانيا لتحقيق مصالح الصهيونية.

وفى خلال الحرب العالمية الثانية أدركت الصهيونية أن نجم انجلترا أخذ بالأفول وأنها لابد من أن تنقل مركز نشاطها إلى أمريكا، بعد أن أصبحت لا تأمن جانب بريطانيا التي كانت سياستها ترمى إلى تحديد كيان إسرائيل وربطه بعجلة الإمبراطورية البريطانية وتسخيره لمصالحها الاستعمارية، فاتصلت باتحادات ونقابات العمال وبالمجالس النيابية في الولايات الأمريكية المختلفة وأعضاء

(1) خيرى حماد، " الصهيونية "، ص 76.

الحزبين الجمهوري والديمقراطي، ولم يأت عام 1944 حتى كانت برلمانات 33 ولاية قد أصدرت توصيات تؤيد فيها المطالب الصهيونية، ثم تحولت نشاطات الأجهزة الصهيونية إلى كسب تأييد الكونجرس الأمريكي للصهيونية، وتمكنوا خلال أعوام قليلة من تحقيق هذا التأييد مستغلين في دعاياتهم جهل الرأى العام الأمريكي للقضية الفلسطينية. وهكذا أخذت الصهيونية تلعب دورا مهما في الانتخابات الأمريكية وتستخدم نفوذها للحصول على أكبر المكاسب في مصلحة الصهيونية وتحقيق أهدافها.

11 ـ تسامح العرب والدعاية الصهيونية في البلاد العربية:

وقد وجد الصهاينة ظروفا ملائمة في تسامح العرب تجاه الأديان السماوية لنشر دعايتهم هذه داخل البلاد العربية التي كان معظمها خاضعًا للنفوذ البريطاني، فكانت مصر المركز الرئيس للحركة الصهيونية والملاذ الحر لطبع منشوراتها فيها. وأغرب ما قرأت من هذه المنشورات كتاب ألفه باللغة العربية كاتب يهودى صهيونى يدعى إيلى ليفى أبو عسل عنوانه " يقظة العالم اليهودى " طبع بالقاهرة سنة 1934م. نعم إنه لغريب وغريب جدا ما قرأته في هذا الكتاب، والأعزب منه أنه سمح بنشره في بلد عربى. إن مؤلف هذا الكتاب يعتبر هرتزل صنوا لموسى وأنه ظهر لإتمام مهمة موسى في تحقيق استعمار اليهود لفلسطين، وأن الحركة الصهيونية ليست إلا تكملة لرسالة موسى إلى شعبه وهكذا يجعل هرتزل في مصاف الأنبياء الذي يجب تقديسهم.

فهو يقول بالحرف الواحد: " قلنا إن موسى كما تقدم الألماع كان أول من شيد صرح الصهيونية ووطد دعائمها، ونشر مبادئها السياسية وقد أثبت لنا الواقع أن الصهيونية ليست في عهدنا هذا سوى حلقة من سلسلة متصلة حلقاتها بعضها ببعض اتصالا مستمسكا وثيقا ومتواثقة أجزاؤها تماسكا محكما شديدا. فلو أجلنا نظرنا في مشروع موسى لاستشففنا ما انطوى عليه إدراكه، والمناهج التي انتهجها في سبيل تحقيقه، ولوجدناه يكاد يكون مطابقا في معناه ومبناه لتعليم هرتزل ونظرياته التي جل مرماها إظهار الوصمة التي لا مندوحة من أن يوصم بها اليهود، والعار الذي يرتدونه إذا ظلوا واجمين واجفين.. كل هذه الزواجر تميط اللثام وتظهر لنا أن الخطط التي رسمها هرتزل كانت على وتيرة واحدة مع التي وضعها موسى، وكانت مشكاة يهتدون بهديها فأزالت عن أبصارهم غشاوة الجهل والغباوة التي كانت مخيمة عليهم، وأشباح المحن والرزايا التي كانت

تنتابهم، فموسى وهرتزل صنوان لا يختلفان لا في المبدأ الذي كانا ينشدانه ولا في الهدف الذي كانا يرميان إليه.. على أن الفكرة الأساسية التي كانت تجيش في صدر موسى هى أن مستقبل القومية اليهودية لا يبسم له محيا السعادة ولا يرجى له النجاح إلا بتملك الشعب اليهودى الأرض في فلسطين تملكا مستديما خالدا. إذ إن الإقامة خارج الوطن ليست في الحقيقة إلا مظهرا من مظاهر التفرقة الهدامة الأليمة مع ما تجره وراءها من محن وخطوب وتبديد للشمل.. إلخ " [1].

وفى هذا الكتاب الكثير من المديح لزعماء الصهيونية والثناء على مؤازراتهم من اليهود وغير اليهود، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن العرب كانوا غافلين عما يجرى في ديارهم أو كانوا قد تمادوا في التساهل الذي اشتهر العرب به مع اليهود عبر التاريخ حتى سمحوا بنشر مثل هذه المطبوعات المتحدية لشعور العرب في عقر دارهم.

ويتجلى التسامح والتساهل اللذان كانت تمارسها البلاد العربية تجاه اليهود أبين التجلى في نوع الحياة التي كان يعيشها اليهود في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، فقد كانوا يتمتعون بحياة هادئة مستقرة وبحرية مطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية والثقافية والاجتماعية ومحافلهم ومعاهدهم الثقافية والتبشيرية، فقد انتشرت مؤسساتهم الدينية والثقافية والاجتماعية والمالية بطول البلاد وعرضها وأطلقت أيديهم في الصحافة المصرية فضلا عن الصحافة اليهودية، فكان لهم أساتذة في المعاهد المصرية وهم يلاقون من زملائهم الأساتذة المصريين أحسن معاملة. وكان لهم دور كبير في مجالات المال والاقتصاد فأثرى عدد كبير منهم وأصبحوا من كبار ملاكى الأراضى والعقار وأصحاب الشركات الكبيرة، كما كان لهم مقاعد في مجلسى الشيوخ والنواب، وفى عام 1924 عين وزير يهودى للمالية في الحكومة المصرية هو يوسف قطاوى باشا.

ولم تكن حياة اليهود في العراق بأقل استمتاعًا واستقرارًا فقد تغلغلوا في جميع نواحى الحياة العراقية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولما تشكلت حكومة العراق المؤقتة في سنة 1920 كان أول وزير للمالية في هذه الحكومة وزير يهودى هو ساسون حسقيل وقد حدد تعيينه في كل الوزارات التي تعاقبت على الحكم بعد تبوء الملك فيصل عرش العراق، وكانت لليهود مقاعد في مجلس النواب والأعيان.

(1) أيلى ليفى أبو عسل، " يقظة العالم اليهودى "، ص22 - 24 و 34.

وقد حظى اليهودى بنفس المكانة والمعاملة في البلاد العربية الأخرى فكان منهم الوزراء مثل الدكتور بنزاكين في المغرب وأندريه بسيس وأندريه باروخ في تونس.

وقد روى المستشرق الفرنسى جاك بيرك أنه لما حاولت حكومة فيشى الفرنسية الخاضعة لألمانيا الهتلرية أن تضطهد يهود المغرب وقف محمد الخامس ملك المغرب يدافع عنهم ويحذر من أن يمسوا بسوء مؤكدا أنهم مواطنون عرب مغربيون.

هذه نماذج عابرة عن تسامح العرب والمسلمين مع اليهود وحمايتهم لهم، وما كان على اليهود وخاصة يهود البلاد العربية أن يعيروا أذانا صاغية للدعايات الصهيونية التي ترمى إلى تحقيق الأغراض الاستعمارية على حساب أهل فلسطين وعلى حساب مصلحة اليهود في العالم في وقت واحد. وإنى لم أزل أحتفظ بمقال كنت قد نشرته في جريدة الأحرار البيروتية قبل أربعين سنة بعنوان " فلسطين بين العرب والصهاينة " (1) وقد شرحت في هذا المقال أطماع انجلترا السياسية في فلسطين وأسباب دعمها للصهيونية، وقد ذكرت آنذاك بأن مصر سائرة بسرعة نحو نيل استقلالها ولابد من قاعدة تكون تحت سيطرة انجلترا لتحل محلها على ساحل البحر المتوسط، وهل من موقع أكثر استراتيجية ومناعة من سواحل فلسطين؟ وإلى الإسرائيليين في البلاد العربية وجهت كلمتى في الختام حرفيا بما يلى:

" إليكم أيها الناطقون بالضاد من إسرائيلى الشرق العربى أوجه الآن كلامى (لست بحاجة إلى القول بأن الفكرة الصهيونية المشؤومة عدوة لدودة للنهضة العربية ولأمانى الدول العربية، وما كان وربى لأى شخص ولد وترعرع، عاش وسعد تحت سماء العالم العربى الصافى الجميل مهما كان قد ورثه عن دين آبائه، أن يجازى البقعة التي تضم رفات آبائه وأجداده بتطوعه إلى جنب أعدائها!، وإننا لننظر بعين الأمل إلى ذلك اليوم الذي يقف فيه إسرائيلو الشرق العربى وقفة واحدة محتجين أمام خطوة انجلترا طالبين تمزيق منشور بلفور والرجوع إلى صراط العدل والحق فيرجع السلام والهدوء إلى ربوع البلاد العربية.

" فلسطين لأهلها تعود ولهم ستكون!! فدخول الغريب إليها ليتخذها تحت تهديد الحراب وطنا قوميا له يكون كمن يحل على رب الدار يريد اغتصاب بيته

(1) جريدة الأحرار، العدد الصادر بتاريخ 28 آب، ص 3.

بالقوة، وليت شعري هل يسلم داره دون الذود والدفاع عنها؟ هذه حقيقة راهنة يجب أن يضعها ذوو العقول نصب أعينهم مهما كانت رغائبهم!!..

" إذا حق للصهاينة أن يطالبون في فلسطين كوطن قومي ليهود العالم فالعرب هم أحق بالأندلس وما يتبعها من البلدان التي كانت تحت سلطان العرب قبل أمد غير طويل

" كل صهيوني يقيم مسكنا على أرض فلسطين عليه أن يعتبر هذا المسكن مسكنا مؤقتا لا وطنا دائما، وما بنو صهيون سوى مرقاة بريطانيا يصعدها الإنجليز لنيل مآربهم في الشرق العربي

وكلمتي الأخيرة: يا إسرائيليي الشرق العربي اهتفوا بصوت واحد: " إننا إسرائيليو المولد ولكننا عرب قبل كل شئ ". قاوموا الصهيونية بكل ما وهبتهم من نفوذ، فهي عدوة لدودة لدين الحق والعدل، وواجب على كل شخص حر عادل، موسويا كان أو مسيحيا أو مسلما أن يتطوع لمكافحتها، وأن الله نصير محبي الحق والعدل ". انتهى " زحلة (لبنان) في 20 آب سنة 1930 ".

وكنت قد نشرت مقالا مطولا بنفس هذا المعنى في مجلة الرابطة العربية لأمين سعيد وذلك عندما كنت في مصر سنة 1936 [1].

ولكن مثل هذه النداءات لم تلق آذانا صاغية في وجه تيار الصهيونية وخططها الجهنمية، ففي ذلك يقول ليلنتال: " لقد نجم عن زخم الصهيونية منذ سنة 1948 أن دمرت علاقات التعايش السلمي التي كان اليهود يتمتعون بها بين إخوانهم العرب منذ ألف سنة، إذ تمكنت الوكالات اليهودية عن طريق إثارة الخوف من الاضطهاد وغيرها من أسلحة الدعاية، أن تسحب 650 ألف يهودي من العراق واليمن وسورية ومصر وتونس والجزائر ومراكش. وقد أغرى هؤلاء المنفيون الشرقيون بالمجئ إلى إسرائيل ليعمروا الأراضي التي تركها العرب المنفيون خالية كما قال موشه مينوهن، إذن لا تكون هجرتهم قد تمت في الدرجة الأولى بقصد إنقاذهم، وإنما لمواجهة متطلبات إسرائيل من مال وأيد عاملة وقوى عسكرية [2].

(1) انظر: الدكتور أحمد نسيم سوسه، " القضية الصهيونية والروح العربية "، في العددين 25، 27 من مجلة الرابطة العربية 1936.
(2) ليلنتال، " إسرائيل - ذلك الدولار الزائف "، ص 96.

ويؤكد الخبراء على مجرى الأمور أن تهجيز اليهود من البلاد العربية تم تحت وطأة حملة اضطهاد مصطنعة ومتعمدة بالتواطؤ بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية، ففى ذلك يقول أبو مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح في مقال نشره في مجلة " بيروت المساء " العدد 101 كانون الثانى 1976، ص 49 - 51: " ومن المعروف أن بلادنا العربية لم تشهد في أية فترة من الفترات نشاطا صهيونيا حقيقيا أى ما يسمى بالدافع العقائدى للهجرة لم تكون متوفرا لدى العرب اليهود. ويتبين أن قسما كبيرا من المهاجرين اليهود من البلدان العربية قد جاء إلى فلسطين المحتلة نتيجة اتفاق تآمرى بين بعض الحكام العرب وقيادة الحركة الصهيونية يقضى بشحن اليهود العرب بكاملهم من أوطانهم إلى فلسطين المحتلة بغض النظر عن رغبة هؤلاء اليهود أو عدم رغبتهم وبغض النظر عن رغبتهم بالهجرة إلى فلسطين، في حالة رغبتهم في الهجرة، أو إلى بلدان أخرى. وينطبق هذا بصورة خاصة على اليهود العرب في اليمن والعراق.

إن الفترة التي سبقت قيام إسرائيل لم تشهد هجرة يهودية تذكر من البلاد العربية بالرغم من قرب فلسطين من هؤلاء، وكان باستطاعة يهود العراق ومصر وسورية ولبنان أن يدخلوا إلى فلسطين بسهولة ويسر لو أرادوا ذلك، ولكنهم لم يفكروا بالهجرة، فكانت حملات التهجير الجماعية والتى تمت بالتواطؤ والتآمر بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية، فنجد مثلا أن 120 ألف من يهود العراق وخمسين ألف من يهود اليمن قد قدموا إلى فلسطين خلال السنوات 1949 - 1951 وبعمليات نقل جماعية، وقد أعطى اسم أسطورى لعملية النقل الجماعية من العراق سنة 1950 هو (عملية على بابا).

وتشير المراجع الصهيونية إلى أن الهجرة من اليمن تمت تحت ضغط التهديد بالطرد من اليمن، أما في العراق فالأمر أكثر وضوحا والمأساة أكثر عمقا وحزنا لما لاقاه اليهود العرب في العراق من صنوف الآلام والتعذيب والإرهاب والضغط لاقتلاعهم من جذورهم ونقلهم إلى المسلح الصهيونى مشلولى الإرادة معدومى الرغبة، لا حول لهم ولا قوة.. لم تكن هجرتهم الجماعية من العراق أمرا طبيعيا أو منطقيا، فليس صحيحا أنهم هاجروا لأنهم كانوا صهاينة أو لأنهم رأوا في إسرائيل تجسيدا لأمانيهم وهذه مسألة تجمع على الإقرار بها كافة المصادر الصهيونية الرسمية وغير الرسمية ولا حاجة لإثبات صحتها باستعراض المراجع والشواهد... فقد نشط المبعوثون الصهيونيون ونجحوا في إدخال كميات كبيرة من السلاح إلى بغداد بمساعدة الجيش البريطانى، وتوجت السلطات العراقية الرجعية

آنذاك إجراءاتها القمعية والتآمرية مع الصهيونية بإصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين بعد التمهيد له بحملة واسعة ضد اليهود، ومع ذلك كانت نسبة الاستجابة له ضئيلة جدا، فقامت منظمة (هشواره) الصهيونية بإلقاء القنابل على اليهود بدءا بيوم 8 / 4 / 1950 وانتهاء بيوم 5 / 6 / 1951.

أما بالنسبة للقانون (المؤامرة) فقد تم الاتفاق على إصداره في اجتماع سرى عقد في فيينا سنة 1949، وحضره نورى السعيد وبن غوريون ومبعوث بريطانى، وبعد عودة نورى السعيد إلى العراق قدم استقالة حكومته ليفسح المجال لمجئ حكومة انتقالية، وكلف السويدى بتأليف الوزارة الجديدة في 5 / 2 / 1950[1]. وتقدمت الحكومة فورا بلائحة قانون إسقاط الجيش وطلبت بإقراره على الفور فوافق المجلس النيابى عليه وكذلك مجلس الأعيان.

وينتهى أبو مازن إلى القول بأن " هذه هى باختصار قصة اليهود في العراق، ومما لا شك فيه أنها القصة النموذج لباقى يهود البلاد العربية، ففى كل بلد لهم قصة شبيهة بقصتهم في العراق وإن اختلفت التفاصيل إلا أن الهدف واحد والمحرك الأساسى وراء هذه القصص واحد أيضا ".

12 ـ هل يكون اليهود قومية شعب واحد؟

وهنا علينا قبل كل شئ تعريف القومية بمفهومها الحديث ثم تعريف معنى الدين أو العقيدة المذهبية: إن المقومات الأساسية للقومية كما هو متفق عليه لدى كثير من الباحثين هى لغة واحدة، ثقافة واحدة، وطن واحد. أما الدين فهو عقيدة يعتنقها الفرد أو المجتمع دون أن يشترط فيه التكلم بلغة واحدة أو الانتماء إلى عرق واحد والقيام في وطن واحد.

يتضح في ضوء ذلك أنه لا توجد قومية لا في اليهودية ولا في المسيحية من حيث الأساس رغم كون الأولى قد أصبحت تعتبر مغلقة منذ قرون طويلة، إن القومية الواحدة قد تضم عدة أديان وهى قائمة بذاتها، وقد تلتقى مع هذه الأديان في وطن واحد ولكن ليس من الضرورى أن يكون الدين ارتباط بالقومية لأن الدين شئ والقومية شئ آخر في تفسير مفهوم القومية الحديثة، وقد يلتقيان في

(1) لم يكن نوري السعيد في الحكم عندما كلف توفيق السويدي بتأليف الوزارة بل كانت وزارة على جودة الأيوبي الثانية قائمة آنذاك وهذه لم تلبث في الحكم إلا أقل من شهرين فاستقالت في أول شباط سنة 1950.

ظروف خاصة كما كان الحال مثلا إبان ظهور الإسلام ولكنهما يتباعدان بل قد يتضاربان كضدين متنافرين في ظروف أخرى، فهل يصح مثلا أن نسم الديانة المسيحية بالقومية؟ هذا من ناحية الدين والقومية وعلاقتهما ببعضهما، أما كيفية انتشار اليهودية والمسيحية فكلتاهما ظهرت في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية ويمارس عبادة الأصنام " والاثنتان انتشرتا في العالم عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق رؤساء مجتمعات تلك العصور فاعتنقها شعوب من مختلف العناصر والأجناس، وخير مثال نورده هنا هو اعتناق قسطنطين المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادى واعتناق أبى كرب ملك اليمن اليهودية في القرن الخامس الميلادى، فأجبر الأول شعبه على اعتناق المسيحية والثانى أجبر شعبه على اعتناق اليهودية، وقد تم ذلك في زمن متقارب جدا بحيث قد يصح اعتبار وقوع الحدثين في زمن واحد. وبنفس هذه الطريقة انتشرت اليهودية في الخزر وفى شرق أوربا كما انتشرت المسيحية في أوربا كلها.

ففى تعليق على التبشير القديم باليهودية يقول المؤرخ باركس: " إنه لمن الخطأ الاعتقاد بأن اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية أو لم يقبلوا التمذهب بالدين اليهودى " (1).

وفى ذلك أيضا يقول كاوتسكى: " ففى بداية العصر المسيحى تعاظمت أهمية الارتداد نحو اليهودية وكان من المغرى بالنسبة للكثيرين أن يخضعوا إلى المجموعة اليهودية التجارية، المزدهرة الواسعة، ومنذ عام 139 قبل الميلاد طرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان، وفى أنطاكية كان المتهودون يشكلون القسم الأكبر من الطائفة اليهودية " (2).

والصهيونية تحاول اليوم على الرغم من علمها بأن اليهود المنتشرين في العالم لا يكونون شعبا واحدا أو عنصرا واحدا وأنهم ينتمون إلى مختلف القوميات، أن تخلق من اليهودية قومية، وهى تسعى أن تجعل من نغمة اضطهاد اليهود قومية يهودية إسرائيلية بربط يهود العالم بعجلة المصير الواحد والولاء الواحد لإسرائيل. لذلك نراها تبذل أقصى الجهود وتسعى بشتى وسائل الإغراء وتجسيم خطر اللاسامية لحمل أكبر عدد ممكن من اليهود على الهجرة إلى إسرائيل بعد أن شعر الزعماء بخطر ذوبان اليهود في البلاد التي يعيشون فيها

(1) J. Parles, "A History of the Jewish People", P. 7.

(2) ليون، " إبراهام: المفهوم المادى للمسألة اليهودية " ترجمة عادل نويهض، ص 31.

وخاصة في الولايات المتحدة وكندا والأرجنتين.

ومن الأساليب الإجرامية التي ارتكبتها الصهيونية أنها تواطأت حتى على اليهود أنفسهم، فاتفقت من طرف خفى مع بعض أولياء الأمور في بعض البلاد العربية التي كانت تخضع للنفوذ البريطانى لشن حملة إرهاب مصطنعة ضد اليهود فيها وذلك لكى يضطروا تحت ضغط هذا الاضطهاد المدبر على الهجرة إلى إسرائيل [1]، وقد كان هذا التواطؤ أكبر جريمة ارتكبت لتشويه سمعة العرب من جهة وخدمة المصالح الصهيونية من جهة أخرى. والصهيونية لا تمانع بأن تضحى بعدد من يهود العالم عن طريق اتباع مثل هذه الأساليب لتحقيق أهدافها السياسية، كما ثبت ذلك في موقعها تجاه اضطهاد اليهود في العهد النازى إذ كانت على علم به وكانت تفاوض النازيين في نفس الوقت بما يخدم أهدافها السياسية الاستعمارية في فلسطين، وقد أنقذت من رغبت في إنقاذهم من الصهاينة من قبضة النازيين [2]، ولكن كل هذه المحاولات لا تجدى نفعا ولا تغير من حقيقة

(1) من جملة الجرائم التي ارتكبتها المنظمات الصهيونية في سبيل حث اليهود على الهجرة إلى إسرائيل ما قامت به إحدى هذه المنظمات في العراق سنة 1951 بإلقاء قنابل يدوية على أماكن اليهود لإرغامهم على الهجرة إلى إسرائيل فقتل من جراء ذلك يهوديان وجرح عدد آخر من اليهود فهاجر بسبب ذلك 115 ألف من يهود العراق إلى إسرائيل، وقد اكتشفت الشرطة العراقية هذه المنظمة الصهيونية السرية، فحكم بالإعدام على اثنين من أعضائها كما صدرت أحكام تتراوح بين خمس سنوات وثماني سنوات على آخرين، وعلى أثر ذلك نشر مدير شرطة بغداد كتابًا بعنوان " سموم الأفعى الصهيونية " تضمن وقائع المحاكمة والأحكام الصادرة، وتصاوير المجرمين والأسلحة التي وجدت معهم ، وهذا الكتاب مفقود في العراق الآن ولابد أن تكون الجهات التي يهمها الأمر قد جمعته واشترت جميع نسخه " العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب "، ترجمة الأستاذ نجدة صفوة، ص 125 - 126، وقد سميت عملية خروج اليهود من العراق باسم عملية علي بابا (ليلنتال، " إسرائيل "، ص 315.

(2) لقد عبر عن ذلك الدكتور محمود السمرا في تعليقه على كتاب " إسرائيل ويهود العالم " أحسن تعبير مستشهدًا بكتابات الصهاينة أنفسهم، فقال:
" لقد عملت الأجهزة الصهيونية المختلفة فعلا على خلق هذا الجو من الإرهاب وعدم الاستقرار في البلاد التي يريدون من يهودها أن يهاجروا، كتدبير حوادث انفجار في أماكن العبادة اليهودية، وقد عبر أحد محرري جريدة (دافار) الإسرائيلية عن هذا

الوضع لأن اليهود منذ ظهورهم على مسرح الأحداث حتى يومنا هذا لم يكونوا شعبا واحدا، فكيانهم قائم على أساس الدين والدين وحده، ألم يدعو بأن الله ميزهم عن باقي الشعوب (بدينهم) واعتبرهم الشعب المختار؟... والدولة التي تقوم على أساس الدين وحده ولا تسندها قومية متماسكة لا تدوم فهي عرضة للزوال.

إن زعماء الصهيونية يحاولون اليوم صهر يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في (قومية) يهودية واحدة قائمة على الدين واللغة، لذلك فقد نهج الصهاينة نهجا خاصا بإنشاء معسكرات تثقيفية خاصة يلقنون فيها اليهود قبل انتقالهم إلى إسرائيل اللغة العبرية والمبادئ الصهيونية ويختارون العناصر اليهودية النقية من أوربا وذلك بعد أن واجهوا معارضة من بعض الفئات اليهودية وخاصة الشرقيين منها. هذا مع العلم أن زعماء الصهيونية يقومون اليوم بنفس المحاولة التي قام بها زعماء اليهود بعد أسر بابل قبل حوالى 2500 عام ولكنهم فشلوا في تحقيق الهدف الذي كانوا يتوخونه. ولا شك في أنهم سيفشلون هذه المرة حتما عاجلا أم آجلا لكونها فكرة مبنية على التعصب والتعالى على الشعوب، مما تلفظه الحضارة الإنسانية.

وصفوة القول: إن اليهود الذين يقدر عددهم بحوالى اثنى عشر مليون نسمة لا يتعدون كونهم طائفة دينية اجتماعية اقتصادية تضم شتى الأجناس واللغات والدماء يسكنون في مواطن متباعدة، فهم لا يملكون مقومات القومية التي يستند الكيان الدولى عليها، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك [1].

وتدل الإحصاءات على أن اليهود الذين في إسرائيل اليوم جاءوا من اثنين ومائة بلد معظمهم لا يحسون برابطة تربط بعضهم ببعض، ولكن إسرائيل تحاول أن تصهر الجميع فتجعل لهم لغة واحدة هى اللغة العبرية، وذلك بتدريس النشء

الاتجاه بوضوح، وذلك عندما قال: " أنا لا أشعر بالخجل وأنا أعترف هنا أنه لو كانت لدى السلطة لأخذت عشرات الشباب الأذكياء، المخلصين لمثلنا العليا، ثم أرسلهم متنكرين إلى البلاد التي استكان فيها اليهود إلى رغد العيش، ، وذلك من أجل نشر شعارات معادية للسامية، وما شابه هذا من الشعارات.. وأنا على يقين بأن هذه ستؤدي إلى نتائج، بشأن الهجرة إلى إسرائيل، أفضل بكثير من النتائج التي حققتها حتى الآن البعثات التي نرسلها لنصب وعظها في آذان صماء ". (العربي، العدد 143، تشرين الأول 1970، ص 151)، انظر التفاصيل عن أعمال الصهوينية في هذا المجال في كتاب " إيفان دونيف "، تعريب فرات الجواهري، دار الفارابي، بيروت، 1974.

(1) انظر ما تقدم عن " اليهود في مختلف أنحاء العالم "، في الفصل السابع.

الجديد اللغة العبرية وتاريخ اليهود بالشكل الذي تهواه بغض النظر عن الحقائق التاريخية. وفي دراسة أجريت على أساس استبيانات وزعت على عدد من المهاجرين الجدد إلى فلسطين أكثرهم من الولايات المتحدة الأمريكية ورد في رد أحد هؤلاء المهاجرين ما نصه: " كنت قبل أن أصل إلى إسرائيل أعتقد أن اليهود يكونون شعبا واحدا، ولكن هذا الاعتقاد تبخر من ذهني بعد وصولي إليها، حيث وجدت فيها خليطا من عدة أمم تنتسب إلى أجناس مختلفة [1].

13 ـ اليهودية والصهيونية:

يتضح مما تقدم أن اليهودية عقيدة دينية شاملة على عكس الصهيونية التي تمثل حرية سياسية عنصرية متطرفة تستغل العاطفة الدينية في سبيل صهر جميع يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في وطن قومي واحد بالضغط والعنف والتهديد وإسكانهم في فلسطين بعد طرد سكانها بالقوة. هذه حقيقة أدركها كثير من المثقفين والواعين من اليهود في مختلف البلاد فأدركوا حقيقة الصهيونية وما تحمله معها من مصائب وكوارث ليهود العالم، منها إحياء اللاسامية وازدواجية الولاء كونها وجدت لخدمة أغراض استعمارية بحتة وقد ربطت مصيرها بعجلة الاستعمار الأنكلو - أمريكي.

لذلك برز عدد غير قليل من المفكرين اليهود الكبار معلنين معارضتهم الدعوة الصهيونية للقومية اليهودية، ففي عام 1878 وقع عدد من الحاخامين على وثيقة نشرت في إحدى الصحف البريطانية قالوا فيها: " لم نعد نمثل هيأة سياسية منذ فتح الرومان فلسطين، بل بتنا مواطنين في البلاد التي نقيم فيها، فنحن إما من الإنجليز أو الفرنسيين أو من الألمان ومكان إقامتنا هو الذي يقرر قوميتنا "، وصدر أيضا عن المؤتمر الذي عقده الحاخامون في أمريكا في مدينة بيتربورج في عام 1885 قرار يقول: " لم نعد نعتبر أنفسنا أمة، وإنما نحن طائفة دينية، ولذا فنحن لا نتوقع أية عودة إلى فلسطين ".

وكتب الحاخام سيجال في عام 1902 بنفس المعنى قال: " لم يكن هناك قط وجود لما يسمى بالشعب اليهودى، إذ إن اليهود لم يهتموا في أى يوم من الأيام بالتسلسل الحياتى والعضوى، ولا بالأرض أو اللغة أو التاريخ، ولا بالتنظيم

(1) العربى، العدد 136 (آذار 1970)، ص 131.

السياسى أو غير ذلك من المقومات المعترف بها للقومية " [1].

ومما قاله س. ج مونتيفيورى الذي كان واحد من الزعماء اليهود الذين أخذ رأيهم في شأن تصريح بلفور قبل إعلانه: " عندما كان تصريح بلفور بشأن فلسطين موضع بحث لدى الحكومة، عرضت نصوصه بصفة شخصية على حفنة من اليهود، كان أربعة منهم صهاينة غلاة أو أشباه صهاينة، وكان اثنان - أنا أحدهما - يعارضان الصهيونية، وقد بدا لنا نحن الاثنان أن نومئ إلى أن من شأن عبارة (الوطن القومى للشعب اليهودى) أن يسبب على الأرجح اضطرابا، ولقد كان فيما يلوح، غير بعيدين عن الصواب... وقد اعترضنا على هذه العبارات لأننا أنكرنا أن يكون اليهود اليوم شعبا مرة أخرى، ولقد طالبنا وتمنينا ومازلت أطالب وأتمنى أنا وأصدقائى، أن يكون اليهود مواطنين أحرارا متساويين في جميع البلدان التي يعيشون فيها، ولقد خشينا أن ينشأ عن الوطن القومى المقترح شعور معاد للسامية أبعد بكثير مما يمكن علاجه. غير أن آراءنا واعتراضاتنا لم تصادف أذنا صاغية، فيما خلا أن حرف التعريف المحدد (أل) كما جاء في المشروع المقترح قد رفع فصار النص الآن بغير تعريف أى (وطن قومى للشعب اليهودى) [2].

ويوضح لنا الأستاذ نجدت فتحى صفوة نقطة مهمة تتعلق بموقف الاتحاد السوفيتى حيال الصهيونية واليهودية فيقول: " إن الحكمة السوفيتية الجديدة تفرق بين اليهود والصهيونية تفرقة تامة وتنظر إلى كل منهما بمنظار خاص. وأن سياسة الاتحاد السوفيتى قامت دائما على أساس الفصل التام بين اليهود السوفييت، والصهيونية، وإسرائيل، لذلك لم يكن مما يناقض تلك السياسة أن تعترف بإسرائيل وتدخل معها في علاقات سياسية دون أن يتأثر موقفها من الصهيونية ويهود السوفييت ". ثم يضيف الأستاذ نجدت إلى ذلك قوله: " ويرى معظم الباحثين والمعلقين الغربيين أن إسراع ستالين في الاعتراف بإسرائيل كان جزءا من سياسته الرامية إلى إزاحة بريطانيا عن منطقة الشرق الأوسط وليس بدافع العطف على فكرة إقامة دولة يهودية.

مع العلم أن الاتحاد السوفيتى يعتبر الصهيونية أداة لعزل الكادحين اليهود

(1) خيرى حماد، " الصهيونية "، ص 104.
(2) هنرى كتن، " فلسطين في ضوء الحق والعدل "، ص 11 - 12.

عن النضال الطبقي ضد البرجوازية [1].

ومع ذلك يحاول الصهاينة اليوم ربط الصهيونية بالديانة اليهودية، ولما كانت القومية هي قوة هذا العصر فقد درج الصهاينة على محاولة خلق قومية من الديانة اليهودية وفرضها على يهود العالم ليستمدا منها قوتهم. فأقوال الزعماء الصهاينة كلها تؤكد وتصر على أن الصهيونية واليهودية لا يمكن الفصل بينهما، وأن اليهودية قومية وكل من انتسب إلى هذا الدين هو صهيوني بغض النظر عن البلد الذي ينتمي إليه واللغة التي يتكلمها والجنسية التي يحملها.

وفي ذلك يقول وايزمن: " أن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان ملاصقتان ولا يمكن تدمير الصهيونية بدون تدمير اليهودية؟ " ومن جملة المقررات المتخذة في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس والعشرين المنعقد في 25 كانون الأول 1960 ما يشير إلى " أنه يتوجب على كل يهودي أن يهاجر إلى فلسطين.. وإن كل يهودي أقام خارج إسرائيل بعد إنشائها يعتبر مخالفا لتعاليم التوراة ".

14 ـ المعارضون للصهيونية من الكتاب اليهود:

وعلى الرغم من إطلاق الصهاينة لهذه المفاهيم التي وضعوها للديانة اليهودية لاستغلالها في تدعيم حركتهم السياسية فهناك عدد غير قليل من اليهود في العالم لا يؤمن بالصهيونية [2]. وهؤلاء يقاومون بشدة، إما بدافع الشعور بالإنسانية على أساس أن الصهيونية مبدأ لا إنساني، وإما حرصا على اليهود خوفا من مواجهتهم اضطهادا جديدا بسبب الاندفاع الصهيوني، وإما بدافع قناعتهم بأن الصهيونية آلة يسخرها الاستعمار العالمي لمصالحه على حساب اليهود والعرب معا.

وتعتبر الصهيونية هؤلاء المناهضين لها من اليهود أشد خطرا عليها من أية جهة أخرى من غير اليهود فهي تخشاهم وتحسب لهم ألف حساب. فقد كان لما

(1) " اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى "، ص 31 - 35.

(2) " يوجد اليوم حوالى 5.5 مليون يهودي في الولايات المتحدة، أي أقل من 3% من السكان، ومن هؤلاء لا يوجد غير مليون وربع المليون ينتمون إلى المنظمات الصهيونية المختلفة، وكما أن ليس كل اليهود صهاينة، فإنه ليس كل صهيوني يهوديا بالضرورة فقد لعب المسيحيون الصهاينة دورا حساسا في هذه الحركة " (ألفريد ليلنتال، " إسرائيل ذلك الدولار الزائف "، ص 16).

وضعه هؤلاء اليهود من مقالات ومؤلفات في مناهضة الصهيونية أكبر الأثر في تحويل وجهة نظر عدد كبير من الغربيين إلى عدالة القضية العربية الفلسطينية إذ صاروا لأول مرة يسمعون الجانب العربي في الدفاع عن حقوق العرب المغتصبة من قلب العالم اليهودي بعد أن ظلوا لا يقرءون ويسمعون غير الدعايات الصهيونية المنتشرة في جميع أنحاء العالم.

فقد كان للكتاب الذي نشره الكاتب الفرنسي ماكسيم رودنسون سنة 1968 بعنوان " إسرائيل والعرب " [1] وهو يهودي، أثر محسوس في الأوساط الغربية فترجم في نفس العام إلى الإنجليزية وانتشر انتشارا واسعا، وقد جاء هذا الكتاب ليدحض الدعاوى الصهيونية متنبئا لها بالفشل المحتوم، وفي ذلك يقول: " إن الصهيونية وإن نجحت اليوم في خلق الدولة اليهودية فإن إقامتها تبقى على أسس غير سليمة، إن القوة التي تعتمد عليها لن تدوم إلى الأبد، وخطوط الأمم في صعود وانخفاض فكما فشلت الدولة الصليبية أن تبقى وتدوم في أرض العرب، فإن إسرائيل ستلقى نفس المصير الذي لاقته هذه الإمارات اللاتينية في فلسطين ".

وهذا كتاب آخر لمؤلف فرنسي يدعى " ناتان وينستوك " وعنوانه " الصهيونية وإسرائيل " وهو كتاب هام في ميدان الدعاية المناهضة للصهيونية، فهو يدحض الدعاوى الصهيونية التي تزعم وجود قوى روحية تربط باليهود بالصهيونية ويبين كيف ظهرت الصهيونية في أواخر القرن الماضي لتجنيد يهود العالم في خدمة الاستعمار العالمي.

وهناك كتب أخرى مناهضة للصهيونية لكتاب يهود مثل كتاب " إبراهام ليون " [2]، وألفريد ليلنتال [3] وغيره، وقد كان لهذه الجمهرة من الكتب والمقالات باللغات الأجنبية أثرها المحسوس في تنبيه الرأى العالمي إلى الأعمال الإجرامية التي ترتكبها الصهيونية بحق العرب حتى أصبحت الصهيونية في نظر عدد من كبار المفكرين علما للدلالة على الاعتداء والاغتصاب بل ورمزا للعبث بحقوق

(1) M. Rodinson, "Israel and the Arabs", 1968.

(2) A. Leon, "The Jewish Question".
ترجمة عماد نويهض بعنوان " التفسير المادى للمسألة اليهودية "..

(3) A. Liliental, "The Other Side of the Cion ".
ترجمه إلى العربية عمر أبو حجلة بعنوان " إسرائيل: ذلك الدولار الزائف "، دار العلم للملايين.

الإنسان. لذلك فإنه لمن الخطأ أن يؤيد بعض الكتاب العرب، من حيث لا يشعرون، نظرية الصهيونية القائلة بأن اليهودية والصهيونية صنوان لا سيما في هذا الوقت الذي أصبح فيه العرب بأشد الحاجة أكثر من أى وقت مضى إلى أصوات هؤلاء الكتاب الذين يناهضون الصهيونية ويحملون عليها. ومن المهم أن نشير هنا إلى نصيحة المؤرخ الشهير " أرنولد توينبى " ذلك العالم الجليل الذي كان له من الجرأة الفكرية للأعراب عن رأيه في شجب أعمال الصهيونية وخططها الإجرامية بحق العرب، والذى يعلق أهمية كبرى على نفوذ اليهود غير الصهاينة، فعندما سئل عن رأيه في العلاج العملى لمشكلة فلسطين، ذكر ثلاث حركات قد تكون إلى حد ما ذات فائدة اثنتان منها تتصل بنفوذ اليهود غير الصهاينة إذ يقول في ذلك: " إن من الصعوبة أن نجد علاجا علميا لهذه المشكلة، وإننى شخصيا أرى ثلاث حركات قد تكون إلى حد ما ذات فائدة:

1- قيام اتحاد أوثق بين الدول العربية.

2- زيادة نفوذ اليهود غير الصهاينة بالولايات المتحدة.

3- زيادة نفوذ الإسرائيليين المتكلمين بالعربية.. والذين يكونون أغلبية هناك حاليا.

ثم يضيف إلى ذلك قوله: " ولا ينتظر أن تنتج أية واحدة من هذه الحركات الثلاث نتائج سريعة - ولكن قد يجوز أن تتغير الحالة إلى أحسن - إذا تحققت هذه الحركات الثلاث مجتمعة " [1].

وفى تعليق للكاتب الفرنسى " رودنسون " حول تعريف الصهيونى والصهيونية يقول: " إن هناك نقطة يخطئ العرب مرارا في موضوعها، إلا أنها طريقة استخدام نهت الصهيونية، ففى أوربا يهود تتفاوت آراؤهم، ومواقفهم السياسية، ولكنهم في أغلب الأحيان متعلقون باستمرار وجود إسرائيل (التي هى بلا شك الأيديولوجية الصهيونية).. كما أن هناك قادة يقرون بوجود إسرائيل. ونعتهم جميعا بالصهيونية موقف سهل ولكنه يحول دون أداء العرب لمهامهم الدعائية بشكل مفيد، فبعض هؤلاء الناس الذي يقرون بوجود إسرائيل لا يمانعون في ظروف أخرى في إدانة بعض ممارسات الحكم الإسرائيلى وحتى في تبنى المطالب الفلسطينية. وباختصار إن ما أرجوه هو ألا يعتبر الفلسطينيون والعرب

(1) " لهذا.. أكره إسرائيل "، للمقدم سامى الغمراوى.

أن الأشخاص الذين حملوا في فترة ما بعض العواطف تجاه إسرائيل أو الشعب الإسرائيلى هم ميؤوس منهم وغير قابلين لتفهم المواقف العربية والفلسطينية بالذات ".

نعم، إن الديانة اليهودية التي حاكها الكهنة اليهود في بابل تشتمل على نفس المبادئ التي تعتمد عليها الصهيونية في الوقت الحاضر، أى على مبدأ واحد هو احتلال أرض فلسطين وقتل أهلها وتشريدهم، ولكن مجرد مناهضة الكتاب اليهود للصهيونية والمبادئ التي تقوم عليها معناه ضمنا عدم الاعتراف بقدسية هذه التعاليم التي ابتدعها اليهود في الأسر ومن ضمنها عقيدة الأرض الموعودة. وهذا يسير مع نفس الاتجاه العربى في العقيدة الإسلامية التي لا تعترف بغير التوراة التي أنزلت على موسى. وإن هذه الحركة الصهيونية التي تأمر بقتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ وتستند على وعد مزيف هى ليست من شريعة موسى بشئ لذلك فقد باءت بالفشل الذريع إذ أخمدها الرومان في مهدها وأزالوها من الوجود، وستلقى الحركة الصهيونية الحالية نفس المصير حتما وذلك عاجلا أو آجلا، لأن النظام الذي يعتمد على القوة والإرهاب وحدهما لن يدوم ولن يبقى ومصيره الزوال.

15 ـ مذكرة " مونتاجو " إلى مجلس الوزراء البريطانى:

ولعل أحسن تحليل للأهداف السياسية والاستعمارية التي ترمى إليها الصهيونية هو الوصف الذي جاء على لسان أحد وزراء الحكومة الإنجليزية ذاتها المدعو " مونتاجو " وهو يهودى، فقد قدم هذا الوزير إلى مجلس الوزراء البريطانى مذكرة عنيفة يهاجم فيها وعد بلفور، وهذه المذكرة موجودة بين وثائق الحكومة البريطانية الرسمية بعنوان " معاداة الحكومة البريطانية الحاضرة للسامية ". وهى تمثل آراء المعارضين من مفكرى اليهود في العالم لوعد بلفور، وندون فيما يلى بعض ما جاء في هذه المذكرة بالنص لأهميتها التاريخية:

" لقد وقع اختيارى على هذا العنوان لهذه المذكرة (معاداة الحكومة الإنجليزية الحاضرة للسامية) لا بدافع شعور بالعداء ولا وسيلة للشجار مع وجهة نظر معادية للسامية يحملها بعض الزملاء الوزراء.. كل ما هناك أننى أود أن أسجل ما أعتقد من أن السياسة التي تتبعها حكومة صاحب الجلالة هى سياسة عداء للسامية من ناحية النتيجة مما قد يجعلها نقطة تجمع للمعادين للسامية في كافة دول العالم، ويؤكد هذا الرأى المراسلة التي تسلمتها أمس والتى جرت بين

لورد روتشيلد وسير بلفور.

" إننى أشعر باعتبارى الوزير اليهودى الوحيد في الحكومة أنه من حقى أن يمنحنى زملائى فرصة للتعبير عن وجهة نظر أتمسك بها تمسكا شديدا.

إننى أؤمن إيمانا راسخا بأن هذه الحروب قد سددت ضربة لفكرة " الدولية " وأنها قد فتحت المجال لبعث الشعور بالقومية الذي كان قد بدأ في التراخى.. فقد أصبح من المتفق عليه ضمنا بين الساسة في معظم الدول أن إعادة توزيع الأقاليم بعد الحرب يجب أن يتم على أسس قومية..

وفى هذه الظروف تقترح الحكومة الموافقة على تكوين أمة جديدة بوطن جديد في فلسطين. والمفهوم أن هذه الأمة ستتكون من اليهود الروس والإنجليز والرومانيين وغيرهم.

لقد بدت الصهيونية لى دائما عقيدة سياسية لا يمكن أن يؤمن بها أى مواطن مخلص للمملكة المتحدة، ذلك أن اليهودى الإنجليزى الذي يتطلع إلى جبل الزيتون ويتوق إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطانى ويعود إلى نشاطه الزراعى في فلسطين إنما يعترف بأنه لا يصلح للاشتراك في الحياة العامة في بريطانيا العظمى. بل ولا يصلح لأن يعامل كمواطن إنجليزى. لقد كان اعتقادى دائما أن الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين إلى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود في روسيا ولكن بعد أن تم الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهود روس، ومنحوا كافة حرياتهم، يبدو من غير المفهوم أن تقدم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمى بالصهيونية وأن يخول مستر بلفور التصريح بأنه يجب أن يعاد تأسيس فلسطين (كوطن قومى للشعب اليهودى). وأنا لا أعلم على وجه التحديد ما ينطوى عليه هذا... وإن كنت أستنتج أنه يعنى أن على المسلمين والمسيحيين في فلسطين أن يخلوا السبيل لليهود الذين سوف يتمتعون بالأفضلية، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباط الإنجليز بانجلترا أو الفرنسيين بفرنسا. كما يعنى ذلك أن الأتراك يعتبرون أجانب مثلهم في ذلك مثل اليهود، الذين سوف يعاملون منذ الآن كأجانب في كل بلد آخر غير فلسطين.

" إننى أحب هنا أن أؤكد أربعة مبادئ:

" أنه لا توجد أمة يهودية. إن أفراد أسرتى مثلا الذين عاشوا في هذا البلد عدة أجيال لا يربطهم بأى أسرة يهودية في أى بلد آخر أى اتفاق في رأى أو رغبة - ولا يجمعهم بها أى شئ أكثر من كونهم يعتنقون بدرجات متفاوتة نفس

الديانة. ولا يصح القول بأن اليهودى الإنجليزى واليهودى المغربى ينتسبان لأمة واحدة كما أنه لا يصح القول بأن المسيحى الإنجليزى والمسيحى الفرنسى ينتسبان لأمة واحدة أو ربما لجنس واحد.

" 2 - إذا قيل لليهود أن فلسطين هى وطنهم القومى فإن كل دولة أخرى سوف تتجه فورا إلى التخلص من مواطنيها اليهود وبذلك سوف نجد في فلسطين عددا ضخما من السكان يقومون بطرد أهلها ويأخذون أحسن ما في البلد، ولسوف يحضر هؤلاء من كافة أجزاء الكرة الأرضية يتحدثون مختلف اللغات ولا يستطيعون التفاهم مع بعضهم البعض إلا عن طريق المترجم.

" إن الحياة التي عاشها اليهود البريطانيون والأهداف التي وضعوها نصب أعينهم والدور الذي لعبوه في حياتنا العامة ومؤسساتنا يجعل من حقهم أن يعتبروا بريطانيين يهودا أكثر منهم يهودا بريطانيين. إننى على استعداد لحرمان كل صهيونى من الحقوق المدنية بل إننى أجد دافعا قويا لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية وضارة بالمصالح الإنجليزية.

" 3 - إننى لا أعترف بأن فلسطين اليوم مرتبطة باليهود أو أنها مكان ملائم كى يعيشوا فيه... إن الوصايا العشر قد أعطيت لليهود في سيناء. حقا إن فلسطين تلعب دورا كبيرا في التاريخ اليهودى، ولكن الأمر كذلك أيضا بالنسبة للتاريخ الإسلامى الحديث. وقد أصبحت فلسطين بعد عهد اليهود تلعب دورا أكبر من أية دولة أخرى في التاريخ المسيحى. قد يكون المعبد اليهودى موجودا في فلسطين ولكن موعظة الجبل وصلب المسيح قد حدثا هناك أيضا.

" وإذا كانت ذاكرتى لا تخوننى، فإن تعداد اليهود في العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذي تستطيع فلسطين أن تستوعبه حتى ولو طرد السكان الموجودين حاليا، أى أن ثلث عدد اليهود فقط يستطيع العودة إلى فلسطين. فماذا يحدث للباقين؟

" إننا كيهود إنجليز نتعلم في المدارس العامة والجامعات ونلعب دورنا في السياسة وفى الجيش والخدمة المدنية في بلدنا أكثر من ذى قبل.. ومن دواعى سرورى أن التعصب ضد التزاوج قد بدأ يلين.. ولكن إذا أعطى اليهودى وطنا قوميا فلا شك أن الدافع لحرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين يصبح أقوى بكثير. وسوف تصبح فلسطين الحى اليهودى للعالم. ولماذا يعطى لورد روتشيلد تلك الأهمية الكبيرة للفروق بين اليهود البريطانيين واليهود الأجانب؟.. إن جميع

اليهود في شتى أنحاء العالم سيصبحون بعد إقامة الوطن القومى في فلسطين يهودا أجانب.

" إننى لا أعلم كيف سيتم اختيار ثلث يهود العالم الذين لا تتسع فلسطين لأكثر منهم، ولكن اليهودى بغض النظر عن البلد الذي ينتمى إليه سوف يصبح لزاما عليه أن يختار واحدا من أمرين.. إما أن يذهب إلى فلسطين ويعيش مع يهود آخرين غرباء عنه أو أن يبقى كضيف غير مرغوب فيه في البلد الذي يعتقد أنه ينتمى إليه.

ولا يدهشنى أن تقدم الحكومة على هذه الخطوة بعد خطوة تكوين لواء يهودى في جيشها، وهأنذا في انتظار أن أسمع أن أخى الذي جرح في الفرقة البحرية أو ابن أخى في حرس المشاة قد يضطر تحت ضغط الرأى العام - أو بسبب تنظيمات الجيش - أن يصبح ضابطا في لواء يتكون أساسا من أناس لا يفهمون اللغة الوحيدة التي يتكلمها الإنجليز، إن إنشاء فرقة يهودية يجعل موقف اليهود في الألوية الأخرى أكثر صعوبة ويفرض جنسيته على الذين لا يشتركون مع بعضهم البعض في شئ " [1].

ومن الواضح أن هذه المذكرة من الوزير اليهودي كانت تهدف أول ما تهدف توضيح ما سيصيب اليهود في مختلف أقطار العالم نتيجة إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، إلا أنها تؤكد في الوقت نفسه بما لا يرقى إليه الشك أنه ليس هناك أمة يهودية تتمتع بقومية يهودية وكل محاولة لخلق مثل هذه القومية مصيرها الفشل وأن النتائج التي تترتب على الخطوة البريطانية بتبني الوطن القومي اليهودي في فلسطين نتائج وخيمة لليهود ولبريطانيا ذاتها، وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات صدر تصريح بلفور ضاربًا صفحًا عن اعتراض اليهود في فكرة الوطن القومي لليهود كما صدر بغير موافقة العرب أو علمهم [2]. لما احتج العرب لدى الحكومة البريطانية التي أكدت لهم بأن تصريح بلفور لن يخل بحقوقهم المدنية والدينية أو بحريتهم السياسية وأن الحكومة لا تؤيد عودة اليهود إلى فلسطين إلا بالقدر الذي يتفق مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان الموجودين فيها [3].

(1) بريطانية، مكتبة السجلات العامة، الخزانة رقم 24 / 24 (23 آب، أغسطس 1917).
(2) هنري كتن، " فلسطين في ضوء الحق والعدل "، ص 11 - 12.
(3) المرجع السابق، ص 14.

وقد كان لمونتاجو (الوزير البريطاني المذكور) موقفًا لا يقل حزمًا عن موقفه تجاه وعد بلفور، وذلك عندما تقدم الطبيب اليهودي الروسي ورئشتين بصفته المتحدث باسم الدولة اليهودية المقبلة بعرض إلى الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى في الفترة التي سبقت إصدار تصريح بلفور، وخلاصة هذا العرض: " أن تقوم دول الحلفاء بتجهيز وتنظيم جيش من اليهود قوامه 120 ألفًا في البحرين تضعه تحت قيادته لغزو واحتلال منطقة الأحساء التركية، وأن تعقد معاهدة مؤقتة معه من أجل خلق دولة يهودية على الخليج العربي ". فقد عارض مونتاجو بشدة هذا العرض وقال في رده في 156 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1917: " .. أنه بصرف النظر، عن الاعتراض العام لإدخال عنصر جديد في الجزيرة العربية، وبصرف النظر عن المشكلة التي هي مثار الجدل حول مرغوبية إقامة دولة يهودية في أي مكان ، هناك أسباب خاصة لاعتبار المواقع المختارة لكل من تمركز الفرق اليهودية وللإقامة النهائية للدولة اليهودية المقترحة غير ملائمة تمامًا، إن وصف الإحساء (كولاية تركية) يمكن أن يكون، صحيحًا من وجهة فنية، ولكن المنطقة هي في الحقيقة بحوزة ابن سعود أمير نجد منذ 1913، الذي عقد معاهدة صداقة وتحالف مع حكومة جلالته في ديسمبر 1915 التي تعترف بصراحة بحقوق ابن سعود بالإحساء، وتضمن له المساعدة من حكومة جلالته في حالة هجوم أية دولة أجنبية على بلاده، وفيما يتعلق بالبحرين فإن شيوخها كانت لهم علاقات معاهدة مع بريطانيا منذ سنة 1820، وحكومة جلالته لا يمكنها أن تقر، بدون موافقة صريحة من هؤلاء الحكام أية اقتراحات تتعلق بحقوقهم الإقليمية.. " هذا مع العلم أن الخارجية البريطانية اعتذرت في 23 أكتوبر 1916 إلى صاحب العرض دون أن تبدي الأسباب [1].

وقد عارض العديد من اليهود في أوروبا تدخل الصهاينة في شؤونهم، فلما زار

(1) خيرية قاسمية، " وثائق بريطانية حول اقتراح يهودي بإقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي أثناء الحرب العالمية الأولى "، شؤون فلسطينية، عدد كانون الثاني 1972،
ص 290 - 291، نقلا عن الوثائق البريطانية التالية:
F.O. 882 - 2 - 14 Arab Bureau Paperes.
F.O. 371 - 3053 - 18242.

" بن غوريون الدانمرك سنة 1962 وأخذ يحث يهودها على الهجرة إلى إسرائيل وقف رئيس الجالية اليهودية في الدانمرك ليقول له: " إننا نحن الدانمركيين لا نريد مكانًا آخر لنعيش فيه حياة أسعد من حياتنا هنا في الدانمرك إننا جزء أصيل من الشعب الدانمركي فنحن دانمركيون أولاً ثم يهود ".

كما رد عليه رئيس حاخامي الدانمرك قائلاً: " إن أي فرد مهما علا مركزه، ومن أي مكان جاء ليس له الحق أن يغير، ولو مثقال ذرة، من الوضع الذي ظل عليه اليهود الدانمركيون سنين طويلة، يعيشون سعداء جنبًا إلى جنب مع باقي إخوانهم الدانمركيين [1].

ولقد برهنت الأيام على أن الأحداث التي كان يتوقع المعارضون والمنتقدون للوطن القومي اليهودي في فلسطين حدوثها في حالة تنفيذ هذا المخطط الاستعماري قد وقعت فعلاً وخاصة بالنسبة للبلاد العربية، فاليهود الذين كانوا يتمتعون بحياة مستقرة آمنة حرة في البلاد العربية اضطر معظمهم تحت ضغط الصهيونية بالتعاون مع السلطات المختصة التي يسيرها الاستعمار إلى الهجرة إلى إسرائيل، أما بريطانيا ناصبة الفتيل فبعد أن تفاقم الوضع وشعرت بتهديد مصالحها في البلاد العربية أخذت تلعب على عدة حبال، فمرة تنفض يدها من جريمتها الأساسية وترميها على عاتق غيرها، ومرة تتظاهر بتأييدها للعرب، ولكن ذلك لن يبرئها مما ارتكبته بحق العرب واليهود معًا، بتخطيطها وتمهيدها لتنفيذ الجريمة، وأن العرب لن ينسوا مسئوليتها الكبرى في تنفيذ هذه المأساة العالمية وستبقى جريمتها لطخة سوداء في جبين الإمبراطورية البريطانية إلى أبد الآبدين.

16 ـ مشكلة اليهود الشرقيين في إسرائيل:

تجابه إسرائيل اليوم مشكلة من أهم المشاكل التي تواجهها في محاولة خلق قومية يهودية تشمل جميع اليهود من مختلف العناصر، وهذه هي مشكلة اليهود الشرقيين. لقد سبق أن عرضنا في الفصل السابق نبذة عن الخلافات الرئيسية بين الطائفتين اليهوديتين الرئيسيتين الغربية والشرقية ونظرة الاحتقار التي يضمرها اليهود الغربيون تجاه اليهود الشرقيين، لذلك يتوقع البعض أن يتحول يوما ما حقد اليهود الشرقيين على اليهود الذين هم من أصل أوربى إلى نشوء مصلحة مشتركة بينهم وبين العرب قد تؤدى إلى انضمامهم إلى جانب العرب في حالة قيام

(1)" مجلة العربي "، العدد 143، ص 151.

اضطرابات في إسرائيل في المستقبل. ولا يخفى أن الصهيونية كانت منذ قيام دولة إسرائيل تحذر من اليهود الشرقيين وبخاصة المتكلمين بالعربية، إذ كانت تعد وجودهم في بلادهم العربية مصدر خطر على مصالحها لذلك كان جل اهتمامها أن تسرع بشتى أساليب الإغراء أو التهديد والتحذير في تهجيرهم إلى إسرائيل ليكونوا تحت قبضتها داخل إسرائيل. ولكن على الرغم من ذلك فالخطر هم الآن أشد مما كان الصهاينة يتوقعونه بعد أن أخذ عدد هؤلاء اليهود الشرقيين يزداد في إسرائيل حتى أصبح على وشك أن يفوق عدد اليهود من الأصل الأوربى [1]. وفى ذلك يقول إسحاق دويتشر ما نصه:

" إن تطلعات إسرائيل الثقافية تأثرت بشدة من جراء التغييرات في تكوين بنية الشعب فقد شكل اليهود الذين هم من الأصل الأوربى الغالبية العظمى من السكان في ظل الانتداب البريطانى، أما الآن فهم ليسوا سوى أقلية. ويشكل المهاجرون من آسيا وأفريقيا نحو نصف عدد سكان إسرائيل. ويسمع المرء شتى أنواع النظريات والتكهنات العميقة في القدس وتل أبيب، ويشير البعض إلى نسبة المواليد العالية بين اليهود الشرقيين ويتنبؤون بأن إسرائيل ستصبح شرقية في النهاية ويتنبأ آخرون بتبلور حضارة إسرائيلية جديدة. وأعتقد شخصيا أن اليهود الأوربيين سوف يصهرون في النهاية.

إن اليهود الشرقيين يمثلون الحضارة الأرقى التي تنتصر في العادة على الحضارة الأدنى... إن اليهودى الغربى يدرك غيرة وحقد اليهود الشرقيين وهو في بعض الأحيان يبدى تخوفه منهم، ويمكن لك أيضا أن تسمع الشكوك التي تثار حول إخلاصهم. (الله وحده يعلم ما إذا كانوا سيضعون أيديهم في أيدى العرب في حالة قيام اضطرابات. ليس من فارق كبير بينهم وبين العرب، أليس كذلك؟) قد لا تكون هذه النظرة مطروحة جديا في الوقت الحاضر، غير أنها تشير إلى وجود نوع من التوتر، ويظن البعض أنه سيأتى يوم يثار فيه حقد اليهود الشرقيين [2].

ومثل ذلك يقول مايكل سلزر بعد أن شرح بالتفصيل الخلافات بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين " إن هذه الحقائق تؤدى إلى تخوف أفظع وهو هل

(1) بلغ عدد اليهود الشرقيين 1.242.578 نسمة عام 1966 أى 53% من مجموع سكان فلسطين المحتلة بينما بلغ عدد اليهود الغربيين 1.101.899 نسمة فقط " التعليم في إسرائيل "، الدكتور منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف، 1969، ص 33.

(2) إسحاق دويتشر، " اليهودى اللايهودى "، ص 75 - 77.

يأتى الوقت الذي ينحاز فيه اليهودى العربى إلى جانب العرب ضدنا؟ وقد كانت هناك مثل هذه الحالات القليلة ".

ويعلق الباحثون أهمية كبيرة على مشكلة اليهود الشرقيين في إسرائيل من حيث تهديدهم لكيان دولة إسرائيل، فيقول دكتور سعد الدين إبراهيم: " أما شعور الازدراء نحو اليهود الشرقيين فهو لا يحتاج إلى تدليل أو توضيح، فالتفرقة والتعصب ضدهم ينعكسان على أحوالهم المادية والاجتماعية، وهم أدنى درجات السلم الاجتماعى في إسرائيل، والمؤسسة الحاكمة في ورطة حيال اليهود الشرقيين.

فمن ناحية تجد نفسها مجبرة على تطبيق شعار العودة بالنسبة لكل اليهود (ومنهم الشرقيون) لأن ذلك الشعار هو التبرير الوجودى لدولة إسرائيل، وفى نفس الوقت يمثل اليهود الشرقيون مشكلات اجتماعية عاتية: فهم يختلفون عن كل من يهود أوربا الشرقية ويهود أوربا الغربية على السواء من الناحية الحضارية. كذلك هم أدنى مهارة من كلا الفريقين ماديا وتعليميا من حيث المهارات التكنولوجية. وتحتاج عمليات أقلمتهم وغسيل مخهم طبقا للمخطط الصهيونى أموالا طائلة لا يمكن توفيرها إلا باقتصاصها من مخصصات الحرب أو على حساب الطوائف الأخرى الأكثر تمييزا، إن أحوال اليهود الشرقيين هى باختصار أحوال مزرية، وتمثل لغما اجتماعيا كبيرا في إسرائيل، والطريقة الوحيدة التي نجحت بها المؤسسة الحاكمة في تأجيل انفجار هذا اللغم كان دائما بتوجيه المرارة والغضب، الذين يحس بهما اليهود الشرقيون نحو الأقلية العربية، أو نحو العالم العربى. ولكن هذه الوسيلة تنكشف بين الحين والآخر، ويدرك اليهود الشرقيون بالتدريج أن عدوهم الأول هو الظلم الاجتماعى والتفرقة العنصرية - كما تجلى ذلك حديثا في ظهور حركة (الفهود السود) الإسرائيلية [1].

وفى قضية زيادة عدد اليهود الشرقيين في إسرائيل يضيف دكتور سعد الدين قائلا: ومن التغيرات الأساسية التي لم يدركها المؤسسون منذ ربع قرن أن اليهود الشرقيين سيصبحون أغلبية سكانية في الربع الأخيرمن هذا القرن. وحتى حينما اتضحت هذه الحقيقة خلال الستينات فإن قدراتهم الخلاقة المحدودة - من ناحية - وتعصبهم وتعاليهم - من ناحية أخرى - لم تمكن المؤسسة الحالية من حل

(1) " مجلة الدراسات العربية "، عدد نيسان 1972، المقال المرسوم " المؤسسة الحاكمة في إسرائيل ".

مشكلاتهم الحضارية والاجتماعية والاقتصادية في وقت مبكر. ولن يكون أمام الأفراد الجدد في المؤسسة الحاكمة في السنوات المقبلة إلا ثلاثة احتمالات في معالجة قضية اليهود الشرقيين: إخضاعهم بالقسر مع شراء زعمائهم ورشوتهم (وهو الأسلوب الذي اتبعته المؤسسة الحالية)، أما الحل الجذرى للمشكلة - وهو ما يتطلب ملايين الليرات التي لا يمكن توفيرها إلا بتغيير عسكرية المجتمع الحالى، ووقف التحيز ومحاباة اليهود الغربيين (في الوظائف والمساكن مثلا) وهذا الحل سيجعل إسرائيل تفقد ميزاتها النوعية في المنطقة، وبالتالى احتمال وجودها في المستقبل. وهذا أمر بعيد اللجوء إليه. والاحتمال الثالث في معالجة قضية اليهود الشرقيين هو استمرار سياسة الحرب والتوسع. ذلك سينتج للمؤسسة الحاكمة شيئين على الأقل، أحدهما تحويل نقمة اليهود الشرقيين نحو العدو الخارجى، والثانى الحصول على أرض وموارد جديدة وبالتالى خلق فرص اقتصادية واجتماعية أمام اليهود الشرقيين. ومن معلوماتنا عن المؤسسة الحاكمة في إسرائيل فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الحل الأخير هو ما ستلجأ إليه هذه المؤسسة.

وفى موضوع اليهود الشرقيين والغربيين يلفت النظر رودنسون الكاتب اليهودى الفرنسى إلى تصريحات القادة الفلسطينيين بأن هناك جنسين في إسرائيل، الجنس العربى والجنس الإسرائيلى، وفى الواقع هناك ثلاثة أجناس: اليهودى العربى، واليهودى الشرقى، واليهودى الغربى [1].

17 ـ مشكلة اليهود السود في إسرائيل:

ومن أبرز مظاهر التمييز العنصرى في المجتمع الإسرائيلى بالإضافة إلى التمييز بين الإشكناز (اليهود الغربيين) واليهود الشرقيين ضمن الإطار اليهودى في العالم ظاهرة التمييز الموجه ضد ما يسمونهم بالعبرانيين السود أو اليهود السود أو الإسرائيليين السود التي سببت مشكلة عنصرية خطيرة في إسرائيل. وهؤلاء من زنوج أميركا المنحدرين من أصل أفريقى اعتنقوا الديانة اليهودية ويدعون بأنهم ينحدرون من اليهود الأثيوبيين أو الفلاش وأن الإله قد منح لهم

(1) انظر هيلدا صايغ، " التضييق العنصري ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل "، وقد سبقت الإشارة إليه، وإننا نورد فيما يلي أهم المراجع التي تتناول هذا الموضوع:
Marie Syrkin, "Oriental Jews in Israel", N: Y:, 1952; M.Selzer, "The Arianization of the Jewish State", N.Y., 1967.

ولذريتهم أرض الميعاد ولذا فإن هذه ا لأرض تخصهم وحدهم. وقد هاجر هؤلاء الزنوج إلى إسرائيل وفقا لقانون العودة لعام 1950 الذي يمنح كل يهودى الحق في الهجرة و " العودة " إلى إسرائيل.

وقد استوطن العبرانيون السود مدينة " ديموناه " و " مثبية ريمون "، " عراد " في النقب، كما استوطنت عائلات يهودية سوداء مدينة أريحا وسكنت بين أهلها العرب، ولم يلبث هؤلاء اليهود السود طويلا حتى انفجرت روح العنصرية ضدهم على أشدها عنفا وقد أخذ الوضع يتفاقم في العلاقات بين اليهود البيض واليهود السود ويسير من سيئ إلى أسوأ بعد وصول أعداد من أبناء هذه الطائفة السوداء حتى أخذت تنعكس ظاهرة التمييز ضد اليهود السود بشكل بارز على العلاقات الإسرائيلية الأفريقية وبشكل أعم على العلاقات الإسرائيلية مع الملونين في أنحاء العالم.

وقد بلغت قضية " اليهود السود " ذورتها عندما اتخذت السلطات الإسرائيلية قرارا بطرد بعض المجموعات اليهودية السوداء ومنع مجموعات أخرى من الوصول إلى إسرائيل خوفا من تزايد عدد اليهود السود وخلق مشاكل عنصرية في المجتمع الإسرائيلى. ويرى البعض أن ولادة هذه الحركة الصهيونية السوداء قد تؤدى إلى احتمال ولادة حركة صهيونية جديدة على أنقاض الصهيونية القائمة، فيعترف بعض الإسرائيليين (البيض) بألم بخطورة هذه المشكلة العنصرية في إسرائيل فيعبر أحدهم عن هذا الألم بقوله: يؤلمنى مصير هؤلاء السود.. ويؤلمنى بشكل أشد العنصرية التي أخذت تنمو في أوساطنا والتى من شأنها أن تشوه شكل دولتنا وطابعها [1].

وهؤلاء اليهود السود المعروفون بالفلاشا Flasha طائفة حبشية اتخذت اليهودية دينا لها واختارت لنفسه حياة منعزلة وتمركزت في أعلى وأوعر جبال الحبشة (جبال سيميان) الواقعة إلى الشمال من بحيرة تانا وهم يجهلون العبرية والتلمود وأن كتاباتهم ومخطوطاتهم الدينية بلغة الجميز [2].

(1) انظر المقال " العبرانيون السود "، بقلم عبد الحفيظ محارب المنشور في عدد 13 أيلول 1972، من مجلة شئون فلسطينية، ص 70 - 82.

(2) لغة الجميز هذه هي أقدم لغة سامية انتقلت إلى الحبشة إثر زحف القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة على مدى أجيال متباعدة في موجات متعاقبة ومعها دخلت لغاتها ولهجاتها كان أقدمها شيوعًا لغة الجميز (اللغة الأم)، وتسمية الجميز

وهذا ما يدل على ان اليهودية دخلت إلى الحبشة منذ أقدم العصور ولعلها جاءت من اليمن إثر زحف القبائل السامية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة، وفى التراث الحبشى قصة تشير إلى ظهور ملكة بين قبيلة أغاو الوثنية تدعى " يوديث " اعتنقت الديانة اليهودية فناصبت ملوك الحبشة العداء وأحرقت عددا من كنائسهم سنة 960 ميلادية، مما حمل أحد أباطرتهم على الاستنجاد بملك النوبة لإنقاذ المسيحية من خطرها. والأحباش ليومنا هذا يصبون اللعنة عليها كلما جاء ذكرها. والمعروف عن هؤلاء اليهود السود أنهم أشغلوا الحبشة بحروب طويلة، حتى أنهم في إحدى حملاتهم العسكرية على العاصمة تمكنوا من اختطاف تاج الملك واحتجازه في قلاعهم الحصينة مدة أربعين سنة [1].

18 ـ هل فلسطين سلعة بائرة لا أهل لها حتى تمنح بالوعود لزيد أو عمرو!

أما ما أورده مدونة التوراة المحرفة من أن هناك وعدا نسبوه إلى ربهم يهوه بمنح بلاد كنعان (من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) لإبراهيم ولنسله من بعده[2]، باعتبار اليهود من نسل إبراهيم، وما أوردوه أيضا من أن هناك أمرا

موروثة من قبيلة يمانية يدعي أفرادها " الأجاعز " ولا يزال أثر الخط السبئ والحميري القديم المعروف بالخط المسند ظاهرًا في كتابة لغته الجميز وهو من أقدم الآثار التي خلفتها حضارة الجنوب العربي في المجتمع الحامي في الحبشة، وقد كان لإدخال هذه اللغة المكتوبة بالحروف الأبجدية أعمق الأثر في نشوء ورسوخ حضارة جديدة في هذه الربوع وقد استعملت هذه اللغة في تدوين أقدم أثر مخطوط وهو المعروف باسم سجل الملوك الذي يحكي تاريخ الحبشة منذ أقدم عصورها المعروفة كما استعملت في الرقم والنقوش المكتشفة في " يحا " وفي بلدة آكسوم العاصمة القديمة، " إلا أن هذه اللغة اندثرت تدريجيًا بسبب تغلب اللهجات الكوشية المحلية عليها واضمحلال مدينة أكسوم ودولتها أمام حروب المسلمين واليهود السود فيما بعد، فانحصر نطاق استعمالها بفضل حروفها الأبجدية في كتابة الأدب والوثائق والطقوس الدينية فقط، وحتى يومنا تجري الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية بلغة الجميز كما وتكتب بها وللكنيسة الحبشية المسيحية واليهود الفلاشا إذن يعود الفضل في بقاء هذه اللغة على قيد الحياة حتى الآن وإن كانت بنطاقها المحدود (ممتاز العارف، " الأحباش بين مأرب وأكسوم "، بيروت 1975، ص 9 - 15).

(1) المرجع السابق، ص 15، 16.

(2) تك، 15: 18 - 20، 17: 8، 35: 12.

من الإله العلى يقضى بإبادة سكان كنعان من غير تمييز بين رجل وامرأة وبين شيخ وطفل وإحراق مدنهم وما فيها بالنار وإحلال بنى إسرائيل (قوم موسى) محلهم [1]، فمسألة لا يمكن أن تمر بدون تعليق أو إبداء وجهة نظر في الموضوع: إن غزو مثل هذا الوعد المشروط بالقتل الجماعى والإبادة إلى الله سبحانه وتعالى هو من غير شك افتراء محض، لأنه لا يمكن أن تعترف أية ديانة سماوية بإبادة بنى الإنسان وقتل النفس البريئة، وأنه افتراء على النبيين الجليلين إبراهيم الخليل وموسى أن تنسب إليهما الرغبة في إبادة الأقوام وقتل الأبرياء.

والمعلوم أن إبراهيم الخليل سكن مع الكنعانيين والمصريين وعاش معهم في مودة ووئام ووفاق، ألم تقل التوراة: أن ملكى صادق الكاهن الكبير ملك شاليم (أورشليم) بارك إبراهيم وقال: " مبارك إبرام من الله العلى مالك السماوات والأرض " [2].. كما أنه من المستحيل أن يكون قد نزل على نبى من الأنبياء أمر بالقتل الجماعى الذي نسب إلى الإله العلى، فقد جاء في القرآن الكريم ما يحذر بنى إسرائيل من مغبة مثل هذه الأفعال المنكرة التي أدخلوها في كتبهم وقالوا هذا

من عند الله [3] فنزلت الآية الشريفة:{مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢]، وفي القرآن الكريم آيات أخرى تأمر بالمودة، وتجنب المعاداة، والبر بمن لا يقاتل، والتقييم للنفس حتى بالنسبة للأعداء، ففى سورة الممتحنة قال تعالى:{عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾} [الممتحنة: ٧ - ٨]. وبمثل ذلك يأمر الإنجيل الأمة المسيحية فيقول: " زيدوا على إيمانكم الفضيلة، وعلى الفضيلة التعقل، وعلى التعقل العفاف، وعلى العفاف الصبر، وعلى الصبر التقوى، وعلى التقوى المودة الأخوية، وعلى المودة الأخوية المحبة " [4] وقد مرت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث.

---

(1) (خر، 34: 12)؛ (تث، 20: 16 - 17)؛ (عد 31: 17 - 18، 23: 50 و 55 - 56)؛ (يش، 6: 21 - 24)؛ 1 صم، 15: 3 و 23).

(2) (تك، 14: 18).

(3) انظر ما تقدم عن قوانين الحرب في التوراة وتحريف التوراة في الفصل الثالث.

(4) (2 بط، 1: 5 - 7).

إن التوراة التي بين أيدينا دونت كما هو معلوم بعد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام بألف وثلاثمائة عام وبعد زمن موسى بمقدار ثمانمائة عام، وقد دونها الكتبة والأحبار عن أفواه أسلافهم على الأكثر، فأضافوا وحرفوا ما حرفوا بحسب أهوائهم ونزعاتهم الدينية، حتى أصبح من المتعذر التمييز بين الأصل وبين المضاف أو المحرف. وقد افتروا فيما كتبوه على الأنبياء ونسبوا إليهم في التوراة أعمال قبيحة تتنافى ومقامهم ومنزلتهم، بل تتنافى مع الفضائل والمثل العليا، ولم يكتفوا بذلك فنسبوا إليهم حتى الزنا، هذا في حين أن الوصايا العشر تقول: " لا تزن " و " لا تقتل ". وهذا كله دليل قاطع على أن الوعد المشروط بالقتل الجماعي والإبادة مختلق من حيث الأساس، إذ لا يمكن أن يكون قد نزل شئ من هذا القبيل من عند الله مطلقا، لذلك فإن بعض علماء اللاهوت من المسيحيين أخذ يدعو إلى عدم اعتراف المسيحية بكتاب العهد القديم ككتاب ديني وحتى ككتاب تاريخي وثائقي، ففي رأى البحاثة والمستشرق سبنسر تريمنغهام الرئيس السابق لكلية العلوم الشرقية في جامعة غلاسكو في بريطانيا وأستاذ العلوم الإسلامية في كلية اللاهوت ببيروت " أن كتاب العهد القديم استخدم ويستخدم لأغراض سياسية لا تقع ضمن إطاره الصحيح، وأما استخدامه من قبل المؤرخين وغيرهم كمادة تاريخية لإثبات بعض الأغراض سوى تشويه للحقيقة ".

والنظرية المهمة التي يطرحها في كتابه " عالمنا The World of Ours " يعرضها في فصل كامل يقارن فيه بين العهد القديم والعهد الجديد باعتبارهما عهدان مختلفان تماما. فالعهد القديم، من وجهة نظره " لا يمكنه مطلقا أن يكون كتابا مسيحيا، أما استمرار بعض الكنائس المسيحية في التشديد عليه فقضية يجب النظر إليها بمنظار لا ديني... " ثم يضيف إلى ذلك قوله: " أنه لا داعي مطلقا لأن يقلق المسيحيون فيما لو أهمل استعمال العهد القديم لأن المسيحية بدأت بالمسيح وحده وبه تنتهي، وقد سبق للناصرى أن نقض جميع ما كان يمارسه اليهود " (1).

يقول الدكتور في اللاهوت في الموسوية واليهودية الأنبا غريغوريوس أسقف علم الدراسات اللاهوتية العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي ببطريركية الأقباط الأرثوذوكس بالقاهرة: " وتزعم إسرائيل أنها (والكلام هنا عن المسيحية) تتبع ديانة العهد القديم وديانة النبي موسى.. وهذا لغو! إن المسيحية وإن جاءت مكملة

(1) الأسبوع العربي، العدد 666، السنة الثالثة عشرة، 13 آذار 1972، ص 39.

ومتممة للموسوية (وقد قال يسوع: " لا تظنوا أنى جئت لأنقض الشريعة والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأتمم "، مث، 5: 17).

لكن اليهودية هى غير الموسوية، إن اليهودية الآن هى ديانة الذين أنكروا المسيح الذي أتى لخلاص العالم فرفعوا دعوته ورسالته وتعاليمه الروحانية متطلعين إلى مسيح آخر من طراز شمشوم الجبار وغيره من المحاربين الأشداء الذين يقودون المعارك الحربية ليحققوا لشعبهم نصرا ماديا أرضيا، ولا يزالون مرتبطين بفكرة المملكة الأرضية التي تقوم على التوسع المادى والاقتصادى ليسودوا العالم ويحكموه، ويتسلطوا على غيرهم من الشعوب اعتقادا منهم أنهم هم وحدهم شعب الله المختار، وأما غيرهم من البشر فهم حيوانات لها أشكال آدمية " (1).

ولا يمكن أن يمر الحديث عن الوعد المذكور آنفا دون أن يرد على الذهن وعد بلفور المشئوم، فهو صورة طبق الأصل عن الوعد التوراتى المزيف مثلته بريطانيا على مسرح شرقنا الحبيب، وقد سجل أفجع مأساة من مآسى القرن العشرين. ومن الواضح أن كلا الوعدين يرمى إلى تحقيق عملية واحدة من حيث الأعداد والتصميم، هى: طرد سكان فلسطين من مساكنهم وإحلال اليهود محلهم. وإذا كان وعد بلفور لم يشر صراحة إلى الإبادة والقتل والتشريد فإن ذلك حصل عمليا عند التنفيذ، ولنا أن نسأل: من أين جاءت بريطانيا يا ترى بهذا الحق المنطوى على سلب أرض فلسطين من أهلها ومنحها لليهود؟... ومن منحها هذا الحق لتظهر بمظهر السخاء والكرم الحاتمى ".. هل فلسطين بائرة لا أهل لها حتى تمنح بالوعود إلى زيد أو عمرو؟

إن هذا التجاوز على حقوق أهل فلسطين لا يمكن أن يدوم لأنه عمل عدائى صريح مخالف للعدل والإنسانية، فكما أزيل في الماضى كذلك سيزال عاجلا أو آجلا، والحق لا يموت إذا وجد وراءه مطالب سخى في الصبر والتضحية.

وأدق تحليل لواقع الحال بالنسبة لقضية العرب واليهود يمكن أن ننهى به هذا الفصل الأخير هو ما كتبه إسحاق دويتشر المعلق اليهودى المعروف بتحليلاته للأحداث السياسية الدولية التي كانت تنشر في الصحف الرئيسية لمدة أربعة عشر عاما في أوربا والولايات المتحدة وكندا واليابان والهند وأمريكا اللاتينية، فنخلص

(1) " وثيقة للكنيسة القبطية في مصر "، الأنوار البيروتية، السنة 16، العدد 5035، ت2 1974، ص 6.

من خلال خبرته العملية ومعرفته الدقيقة بالأحوال السياسية والاقتصادية والعسكرية في إسرائيل إلا أن النصر الإسرائيلى سنة 1967 يعد كارثة تاريخية بالنسبة للصهيونية على المدى البعيد، وأن الطريق العربى إلى النصر على الصهيونية والاستعمار يمر بخطى سريعة نحو تحقيق وتطور شامل في بنيان مجتمع عربى موحد مبنى على استراتيجية ثورية جديدة يرمى إلى التحرر من طرق المطامع الاستعمارية في المنطقة. فيقول دويتشر ما نصه:

" إن الحرب و (معجزة) النصر الإسرائيلى لم تحلا أيا من المشاكل التي كانت قائمة بين إسرائيل وبين الدول العربية، بل على العكس، فقد ضاعفت الحرب من خطورة المشاكل القديمة، وخلقت مشاكل أخرى جديدة أكثر من أى وقت مضى. وإننى مقتنع بأن النصر الإسرائيلى سيتحول في المستقبل القريب إلى كارثة تصيب دولة إسرائيل نفسها... إن هذا النصر بالنسبة لإسرائيل هو أشد ضررا لها من الهزيمة، ولقد أضعفها بدلا من أن يوفر لها الأمن والاستقرار "[1].

* * *

(1) إسحاق دويتشر، " اليهودى اللايهودى "، ص 92، 106.

19 ـ الخاتمة

وختاما يبدو لنا أن الصهيونية مع المصائب والكوارث التي أحدثتها في البلاد العربية في اعتداءاتها المتكررة خدمت العرب في شئ واحد، هو بعثها الإحساس القومى العربى في الأمة العربية واليقظة بعد رقاد طويل، كما أحدثت وعيا بين الأمم الغربية التي لم تكن تعلم شيئا عن العرب غير ما كان يصلها من اليهود وأعوانهم، إذ صار العالم اليوم يتنور ويتفهم الحقيقة الواقعة التي كان يجهلها، وهى أن هناك جماعة معتدية على شعب مسالم تريد اغتصاب أرضه وطرده منها ليحتل محله بالقوة، وعلى الرغم مما تنشره الدعايات المغرضة بوصفها البلاد العربية بالتفكك والتنافر، فإن البلاد العربية تسير اليوم بخطى سريعة في مسيرتها القومية نحو جمع الشمل والتعاون فيما بينها في دفع الخطر المشترك كأمة متماسكة مستمدة من مجدها الغابر وتراثها وإيمانها الثابت الحزم والقوة في تحقيق أهدافها التحررية في ظل وحدة شاملة يسودها العدل الاجتماعى والرخاء العميم.

* * *